الطبيعة، ولهم في علاج ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة عندهم للعلاج، المسماة عندهم بالجحر المكرم هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا أو كذا مما سوى ذلك.وجملة التدبير عندهم بعد تعين المادة أن تمهى بالفهر على حجر صلد أملس وتسقى أثناء إمهائها بالماء، بعد أن يضاف إليها من العقاقير والأدوية ما يناسب القصد منها، ويؤثر في انقلابها إلى المعدن المطلوب. ثم تجفف بالشمس من بعد السقي أو تطبخ بالنار أو تصعد أو تكلس لاستخراج مائها أو ترابها. فإذا رضي بذلك كله من علاجها وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صنعته، حصل من ذلك كله تراب أو مائع يسقون الإكسير، ويزعمون انه إذا القي على الفضة المحماة بالنار عادت ذهباً؛ أو النحاس المحمى بالنار عاد فضة على حسب ما قصد به في عمله.ويزعم المحققون منهم أن ذلك الإكسير مادة مركبة من العناصر الأربعة، حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى طبيعية تصرف ما حصلت فيه إليها، وتقلبه إلى صورتها ومزاجها، وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات والقوى، كالخميرة للخبز، تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش والهشاشة، ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء. وكذا إكسير الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعان، يصرفه إليهما ويقلبه إلى صورتهما.هذا محصل زعمهم على الجملة، فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه، ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لائمة الصناعة من قبلهم يتداولونها بينهم، ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف أسرارها، إذ هي في الأكثر تشبه المعمى. كتأليف جابر بن حيان في رسائله السبعين، ومسلمة المجريطي في كتابه رتبة الحكيم، والطغرائي والمغيربي في قصائده العريقة في إجادة النظم وأمثالها، ولا يحلون من بعد هذا كله بطائل منها.

فاوضت يوما شيخنا أبا البركات التلفيفي، كبير مشيخة

الأندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التآليف فيها؛ فتصفحه طويلاً، ثم رده إلى وقال لي، وأنا الضامن له أن لا يعود إلى بيته إلا بالخيبة. ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط. إما الظاهرة، كتمويه الفضة بالذهب، أو النحاس بالفضة أو خلطهما على نسبة جز أو جزأين أو ثلاثة؛ أو الخفية كإلقاء الشبه بين المعادن لصناعة، مثل تبييض النحاس وتليينه بالزوق المصعد، فيجيء جسماً معدنياً شبيهاً بالفضة، ويخفى إلا على النقاد المهرة؛ فيقدر أصحاب هذه الدلس، مع دلستهم هذه، سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان تمويها على الجمهور بالخلاص وهؤلاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة أموال الناس؛ فإن صاحب هذه الدلسة إنما هو يدفع نحاساً في الفضة وفضة في الذهب، ليستخلصها لنفسه؛ فهو سارق وأشر من السارق.ومعظم هذا الصنف لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الأغمار، يأوون إلى مساجد البادية ويموهون على الأغنياء منهم، بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة، والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما، فيحصلون من ذلك على معاش. ثم يبقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة، إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة، فيفرون إلى موضع آخر، ويستجدون حالاً أخرى في استهواء بعض أهل الدنيا بأطماعهم فيما لديهم. ولا يزالون كذلك في ابتغاء معاشهم. وهذا الصنف لا كلام معهم، لأنهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف بالسرقة؛ ولا حاسم لعلتهم إلا اشتداد الحكام عليهم، وتناولهم من حيث كانوا، وقطع أيديهم متى ظهروا على شأنهم، لأن فيه إفساداً للسكة التي تعم بها البلوى، وهي متمول الناس كافة. والسلطان مكلف بإصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها. وأما من انتحل هذه الصناعة، ولم يرض بحال الدلسة؛ بل استنكف عنها ونزه نفسه عن إفساد سكة المسلمين ونقودهم، وإنما يطلب إحالة الفضة للذهب، والرصاص والنحاس والقصدير الى

الفضة بذلك النحو مع العلاج، وبالإكسير الحاصل عنده؛ فلنا مع هؤلاء متكلم وبحث في مداركهم لذلك. مع أنا لا نعلم أن أحداً من أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه على بغية. إنما تذهب أعمارهم في التدبير والفهر والصلابة والتصعيد والتكليس واعتيام الأخطار بجمع العقاقير والبحث عنها. ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم، ممن تم له الغرض منها أو وقف الى الوصول، يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها؛ ولا يستريبون في تصديقها، شأن الكلفين المغرمين بوساوس الأخبار فيما يكلفون به، فإذا سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعاينة أنكروه، وقالوا إنما سمعنا ولم نر. هكذا شأنهم في كل عصر وجيل.واعلم أن انتحال هذه الصنعة قديم في العالم، وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين. فلننقل مذاهبهم في ذلك، ثم نتلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه، فنقول: إن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة، وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين: هل هي مختلفات بالفصول، وكلها أنواع قائمة بأنفسها؛ أو أنها مختلفة بخواص من الكيفيات، وهي كلها أصناف لنوع واحد؛ فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي، وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد، وان اختلافها إنما هو بالكيفيات، من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان، من الصفرة والبياض والسواد، وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد. والذي ذهب إليه ابن سينا، وتابعه عليه حكماء المشرق، أنها مختلفة بالفصول، وأنها أنواع متباينة، كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته، له فصل وجنس شأن سائر الأنواع. وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع إمكان انقلاب بعضها إلى بعض، لإمكان تبذل الأغراض حينئذ وعلاجها بالصنعة.فمن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء

عنده ممكنة سهلة المأخذ. وبنى أبو علي ابن سينا على مذهبه في اختلافها بالنوع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها، بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه، وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل. والفصول مجهولة الحقائق رأساً بالتصور، فكيف يحاول انقلابها بالصنعة. وغلطه الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول. ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه، إنما هو إعداد المادة لقبوله خاصة. والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وبارئه، كما يفيض النور على الأجسام بالصقل والإمهاء.ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته، قال: "وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات، مع الجهل بفصولها، مثل العقرب من التراب والنتن، ومثل الحيات المتكونة من الشعر، ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوين النحل إذا فقدت من عجاجيل البقر. وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصييره سكراً بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون؛ فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة؛ فتتخذ مادة تضيفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة. ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها". انتهى كلام الطغرائي بمعناه. وهذا الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح. لكن لنا في الرد على أهل هذه الصناعة، مأخذا آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين، لا الطغرائي ولا ابن سينا. وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة في الجسم المعدني حتى إحالته ذهباً أو فضة، ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان أقصر. لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله، وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين، دورة الشمس الكبرى. فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على

ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة نصيرها كالخميرة، فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في إحالته، وذلك هو الإكسير على ما تقدم.واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية، فلا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة، إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها؛ فلا بدّ من الجزء الغالب على الكل. ولا بدّ في كل ممتزج من المولدات من حرار؛ غريزية، هي الفاعلة لكونه، الحافظة لصورته. ثم كل متكون في زمان، فلا بدّ من اختلاف أطوار؛ وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور، حتى ينتهي إلى غايته. وانظر شأن الإنسان في طور النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم التصوير، ثم الجنين، ثم المولود، ثم الرضيع، ثُم ثم إلى نهايته. ويسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها، وإلا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر، وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر. فانظر إلى الذهب ما يكون له في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين، وما ينتقل فيه من الأحوال؛ فيحتاج صاحب الكيمياء إلى أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن، ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم.ومن شرط الصناعة أبدا تصور ما يقصد إليه بالصنعة. فمن الأمثال السائرة للحكماء: أول العمل آخر الفكرة، وآخر الفكرة أول العمل. فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة وبسبها المتفاوتة في كل طور، واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة، ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز، وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها. وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط، والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك. وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق إنسان من المني. ونجن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه، وعلم ذلك علماً

محصلاً بتفاصيله، حتى لا يشذ منه شيء عن علمه، سألنا له تخليق هذا الإنسان، وأنى له ذلك.ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول: حاصل صناعة الكيمياء، وما يدعونه بهذا التدبير أنه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي، ومحاذاتها به، إلى أن يتم كون الجسم المعدني، أو تخليق مادة بقوى وأفعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلاً طبيعياً فتصيره وتقلبه إلى صورتها. والفعل الصناعي مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية، التي يقصد مساوقتها أو محاذاتها، أو فعل المادة ذات القوى فيها، تصوراً مفضلاً واحدة بعد أخرى. وتلك الأحوال لا نهاية لها، والعلم البشرى عاجز عن الإحاطة بما دونها، وهو بمثابة من يقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات.هذا محصل هذا البرهان وهو أوثق ما علمته، وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة، إنما هو من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها. وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك، وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته. وذلك أن حكمة الله في الحجرين، وندورهما أنهما قيم لمكاسب الناس ومتمولاتهم. فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك، وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء. وله وجه آخر من الاستحالة أيضاً، وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد. فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح، وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها وأقل زماناً، لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته، في كون الفضة والذهب وتخففهما. وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها، فأمر صحيح في هذه أدى إليه العثور كما زعم. وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها، وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء إلى هلم جرا، ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة. ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلميذه وأصحابه، وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه

صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا. وأما قولهم إن الإكسير بمثابة الخميرة وأنه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه إلى ذلك، فاعلم أن الخميرة إنما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد، والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الافعال والطبائع. والمطلوب بالإكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه وأعلى، فهو تكوين وصلاح، والتكوين أصعب من الفساد، فلا يقاس الإكسير بالخميرة. وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما تزعم الحكماء المتكلمون فيها، مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجريطي وأمثالهم؛ فليست من باب الصنائع الطبيعية، ولا تتم بأمر صناعي. وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات، إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق ، وما كان من ذلك للحلاج وغيره، وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك. وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى. وهذا كلام جابر. في رسائله. ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة بنا إلى شرحه. وبالجملة فأمرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع. فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشباً أو حيواناً فيما عدا مجرى تخليقه؛ كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته إلا بإرفاد مما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع، فكذلك من طلب الكيمياء طلبا صناعيا ضيع ماله وعمله. ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم، لأن نيله إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع، فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثائف الأجساد، ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة؛ أو مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الأنبياء. قال تعالى: {وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني}[المائدة:110] . فتنفخ فيها، فتكون طيراً بإذني،. وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف بحسب حال من يؤتاها. فربما أوتيها الصالح ويؤتيها غيره، فتكون عنده

معارة. وربما أوتيها الصالح ولا يملك إيتاءها، فلا تتم في يد غيره.ومن هذا الباب يكون عملها سحرياً، فقد تبين أنها إنما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة إما معجزة أو كرامة أو سحراً. ولهذا كان كلام الحكماء كفهم فيها ألغازاً، لا يظفر بحقيقته إلا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عائم الطبيعة. وأمور خرق العادة غير منحصر؛ ولا يقصد أحد إلى تحصيلها. والله بما يعملون محيط.وأكثر ما يحمل على التماس هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية للمعاش، وابتغاؤه من غير وجوهه الطبيعية، كالفلاحة والتجارة والصناعة، فيستصعب العاجز ابتغاءه من هذه، ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها. وأكثر من يعنى بذلك الفقراء من أهل العمران. وللناس أقوال كثيرة- حتى في الحكماء المتكلمين- في إنكارها واستحالتها. فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان علية الوزراء، فكان من أهل الغنى والثروة، والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه. وهذه تهمة ظاهرة في أنظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها. والله الرزاق، ذو القوة المتين، لا رب سواه.

الفصل الرابع والثلاثون

في أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل

إعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك. وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها. ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها، فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل. ويمثل ذلك من شأن الفقه في

المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً وما كتب عليها من الشروحات الفقهية، مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل على العتبية، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه. ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد. والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها. ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً؛ ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها. ويمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه، وجميع ما كتب عليه، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك. وكيف يطالب به المتعلم، وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد، من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام، ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة، لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما، لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه. ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين، سيما مع ما قدمناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء. وهذا نادر من نوادر الوجود، وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله، فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؛ ولكن الله يهدي من يشاء.

الفصل الخامس والثلاثون

في المقاصل التي ينبغي اعتمادها بالتآليف وإلغاء ما سواها

أعلم أن العلوم البشرية خزانتها النفس الإنسانية بما جعل الله فيها من الإدراك الذي يفيدها ذلك الفكر المحصل لها ذلك بالتصور للحقائق أولاً، ثم بإثبات العوارض الذاتية لها أو نفيها عنها ثانياً؛ إما بغير وسط أو بوسط، حتى يستنتج الفكر بذلك مطالبه التي يعني بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الضمير فلا بد من بيانها لآخر: إما على وجه التعليم؛ أو على وجه المفاوضة، تصقل الأفكار في تصحيحها. وذلك البيان إنما يكون بالعبارة، وهي الكلام المركب من الألفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف، وهي كيفيات الأصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر، وإن كان معظمها وأشرفها العلوم، فهي شاملة لكل ما يندرج في الضمير من خبر أو إنشاء على العموم. وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدى بها ما في الضمير، لمن توارى أو غاب شخصه وبعد؛ أو لمن يأتي بعد ولم يعاصره ولا لقيه. وهذا البيان منحصر في الكتابة، وهي رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ النطقية حروفاً بحروف وكلمات بكلمات؛ فصار البيان فيها على ما في الضمير بواسطة الكلام المنطقي، فلهذا كانت في الرتبة الثانية واحداً؛ فسمي هذا البيان. يدل على ما في الضمائر من العلوم والمعارف، فهو أشرفها. وأهل الفنون معتنون بإيداع ما يحصل في ضمائرهم من ذلك في بطون الأوراق بهذه الكتابة، لتعلم الفائدة في حصوله للغائب والمتأخر، وهؤلاء هم المؤلفون. والتآليف بين العوالم البشرية والأمم الإنسانية كثير، ومنتقلة في الأجيال والأعصار وتختلف باختلاف الشرائع والملل والأخبار عن الأمم والدول.

وأما العلوم الفلسفية، فلا اختلاف فيها، لأنها إنما تأتي على نهج واحد، فيما تقتضيه الطبيعة الفكرية، في تصور الموجودات على ما هي عليه؛ جسمانيها وروحانيها وفلكيها وعنصريها ومجردها ومادتها. فإن هذه العلوم لا تختلف، وإنما يقع الاختلاف في العلوم الشرعية لاختلاف الملل، أو التاريخية لاختلاف خارج الخبر. ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات البشر في رسومها وأشكالها، ويسمى ذلك قلماً وخطاً. فمنها الخط الحميري، ويسمى المسند، وهو كتابة حمير وأهل اليمن الأقدمين، وهو يخالف كتابة العرب المتأخرين من مضر، كما يخالف لغتهم. وإن الكل عربياً. إلا أن ملكة هؤلاء في اللسان والعبارة غير ملكة أولئك. ولكل منهما قوانين كلية مستقرأة من عبارتهم غير قوانين الآخرين. وربما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة. ومنها الخط السرياني، وهو كتابة النبط والكلدانيين. وربما يزعم بعض أهل الجهل أنه الخط الطبيعي لقدمه فإنهم كانوا أقدم الأمم، وهذا وهم، ومذهب عامي. لأن الأفعال الاختيارية كلها ليس شيء منها بالطبع، وإنما هو يستمر بالقدم والمران حتى يصير ملكة راسخة، فيظنها المشاهد طبيعية كما هو رأي كثير من البلداء في اللغة العربية؛ فيقولون: العرب كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع، وهذا وهم. ومنها الخط العبراني الذي هو كتابة بني عابر بن شالح من بني إسرائيل وغيرهم. ومنها الخط اللطيني ، خط اللطينيين من الروم، ولهم أيضاً لسان مختص بهم. ولكل أمة من الأمم اصطلاح في الكتاب يعزى إليها ويختص بها. مثل الترك والفرنج والهنود وغيرهم. وإنما وقعت العناية بالأقلام الثلاثة الأولى. أما السرياني فلقدمه كما ذكرنا، وأما العربي والعبري فلتنزل القرآن والتوراة بهما بلسانهما. وكان هذان الخطان بياناً لمتلوهما، فوقعت العناية بمنظومهما أولاً وانبسطت قوانين لاطراد العبارة في تلك اللغة على أسلوبها لتفهم الشرائع التكليفية من ذلك الكلام الرباني. وأما اللطيني فكان الروم، وهم أهل ذلك

اللسان، لما اخذوا بدين النصرانية، وهو كله من التوراة، كما سبق في أول الكتاب، ترجموا التوراة وكتب الأنبياء الإسرائيليين إلى لغتهم، ليقتنصوا منها الأحكام على أسهل الطرق. وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم آكد من سواها. وأما الخطوط الأخرى فلم تقع بها عناية، وإنما هي لكل أمة بحسب اصطلاحها. ثم إن الناس حصروا مقاصد التآليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدوها سبعة:

أولها :استنباط العلم بموضوعه وتقسيم أبوابه وفصوله وتتبع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق ويحرص على إيصاله بغيره، لتعم المنفعة به فيودع ذلك بالكتاب في المصحف، لعل المتأخر يظهر على تلك الفائدة، كما وقع في الأصول في الفقه. تكلم الشافعي أولاً في الأدلة الشرعية اللفظية ولخصها، ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها، وانتفع بذلك من بعدهم إلى الآن.

وثانيها: أن يقف على كلام الأولين وتآليفهم فيجدها مستغلقة على الأفهام ويفتح

الله له في لهمها فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممن عساه يستغلق عليه، لتصل الفائدة لمستحقها. وهذه طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول، وهو فصل شريف.

وثالثها: أن يعثر المتأخر على غلط أو خطأ في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد في الإفادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التآليف في الآفاق والأعصار، وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه، فيودع ذلك الكتاب ليقف على بيان ذلك.

ورابعها: أن يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب

انقسام موضوعه فيقصد المطلع على ذلك أن يتمم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص فيه مجال.

وخامسها: أن يكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة؛ فيقصد المطلع على ذلك أن يرتبها ويهذبها، ويجعل كل مسألة في بابها، كما وقع في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم؛ وفي العتبية من رواية العتبي عن أصحاب مالك؛ فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وقعت في غير بابها فهذب ابن أبي زيد المدونة وبقيت العتبية غير مهذبة. فنجد في كل باب مسائل من غيره. واستغنوا بالمدونة وما فعله ابن أبي زيد فيها والبرادعي من بعده.

وسادسها: أن تكون مسائل العلم مفرقة في أبوابها من علوم أخرى فيتنبه بعض الفضلاء الى موضوع ذلك الفن وجميع مسائله، فيفعل ذلك، ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم، كما وقع في علم البيان. فإن عبد القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع منها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة، تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم؛ فكتبت في ذلك تآليفهم المشهورة، وصارت أصولاً لفن البيان، ولقنها المتأخرون فأربوا فيها على كل متقدم.

وسابعها: أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطولاً مسهباً فيقصد بالتآليف تلخيص ذلك، بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرر، إن وقع، مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الأول.

فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتآليف ومراعاتها. وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء

مثل انتحال ما تقدم لغيره من التآليف أن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس، من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه، أو يحذف ما يحتاج إليه في الفن أو يأتي بما لا يحتاج إليه؛ أو يبدل الصواب بالخطأ، أو يأتي بما لا فائدة فيه. فهذا شأن الجهل والقحة. ولذا قال أرسطو، لما عدد هذه المقاصد، وانتهى إلى آخرها فقال: وما سوى ذلك ففصل أو شره، يعني بذلك الجهل والقحة. نعوذ بالله من العمل في ما لا ينبغي للعاقل سلوكه. والله يهدي للتي هي أقوم.

الفصل السادس والثلاثون

في أن كثرة الاختصارات الموضوعة في العلوم مخلة بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. فصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسيراً على الفهم. وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة فم الفنون للتفسير والبيان؛ فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم. وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدىء بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم كما سيأتي. ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها. لان ألفاظ المختصرات نجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت. ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات، إذا تم على سداده، ولم تعقبه آفة؛ فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع

في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة. وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقفته كشأن هذه الموضوعات المختصرة؛ فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبوهم صعباً يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها. (ومن يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له). والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل السابع والثلاثون

في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته

إعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدريج، شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً، يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب. ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم؛ إلا أنها جزئية وضعيفة. وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله. ثم يرجع به إلى الفن ثانية؛ فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفى الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته. ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا منغلقاً إلا وضحه وفتح له مقفله؛ فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات. وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه. وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار

ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله، فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها؛ فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً. ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة، إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية. ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً، بمخالطة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد؛ ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن. وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه. وإنما أتى ذلك من سوء التعليم. ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره. لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم. والله يهدي من يشاء.وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها، لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانية للنسيان، كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة؛ لان الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل توسيت الملكة الناشئة عنه. والله علمكم ما لم تكونوا

تعلمون.ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم
علمان معاً؛ فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الاخر؛ فيستغلقان معا ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرع الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

الفكر الإنساني:

واعلم أيها المتعلم أني أتحفك بفائدة في تعلمك، فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة، ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة. وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها، وذلك ان الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة، فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته، وهو [وجدان حركة للنفس]، في البطن الأوسط من الدماغ. تارة يكون مبدءا للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب؛ وتارة يكون مبدءاً لعلم ما لم يكن حاصلاً بأن يتوخه إلى المطلوب. وقد يصور طرفيه ويروم نفيه أو إثباته، فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما، أسرع من لمح البصر إن كان واحداً. وينتقل إلى تحصيل وسط آخر إن كان متعدداً، ويصير إلى الظفر بمطلوبه. هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من بين سائر الحيوانات.ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية، تصفه ليعلم سداده من خطئه. لأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً، إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتهما ومن اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنتائج، فتعين المنطق على التخلص من ورطة هذا الفساد إذا عرض. فالمنطق، إذا، أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها، ولكونه أمراً صناعياً استغني عنه في الأكثر. ولذلك تجد كثيراً من فحول النظار في الخليقة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة علم المنطق، ولا سيما مع صدق النية والتعرض لرحمة الله تعالى، فإن

ذلك أعظم معنى. ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها؛ فتفضي بهم بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه.ثم من دون هذا الأمر الصناعي، الذي هو المنطق، مقدمة أخرى من التعليم وهي معرفة الألفاظ؛ ودلالتها علي المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان بالخطاب. فلا بد أنها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك. فأولاً دلالة الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة وهي أخفها؛ ثم دلالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة؛ ثم القوانين في ترتيب المعاني للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق؛ ثم تلك المعاني مجردة في الفكر اشتراكاً يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه. وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة بما، ولا يقطع هذه الحجب في التعليم بسهولة؛ بل ربما وقف الذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في اشتراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات، فقعد عن تحصيل المطلوب. ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة إلا قليلاً ممن هداه الله.فإذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو تشغيب بالشبهات في ذهنك، فاطرح ذلك وانتبذ حجب الألفاظ وعوائق الشبهات، واترك الامر الصناعي جملة واخلص الى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه. وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك فيه للغوص على مرامك منه، واضعاً قدمك حيث وضعها أكابر النظار قبلك، متعرضا للفتح من الله، كما فتح عليهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فإذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك ، وحصل الإمام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطرك عليه كما قلناه. وحينئذ فارجع

به إلى قوالب الأدلة وصورها، فأفرغه فيها ووفه حقه من القانون الصناعي؛ ثم اكسه صور الألفاظ وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان.وأما إن وقفت عند المناقشة في الألفاظ والشبهة في الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطئها، وهذه أمور صناعية وضعية تستوي جهاتها المتعددة وتتشابه لأجل الوضع والاصطلاح، فلا تتميز جهة الحق منها؛ إذ جهة الحق إنما تستبين إذا كانت بالطبع، فيستمر ما حصل من الشك والارتياب، وتسدل الحجب على المطلوب وتقعد بالناظر عن تحصيله. وهذا شأن الأكثر من النظار والمتأخرين، سيما من سبقت له عجمة في لسانه، فربطت على ذهنه، أو من حصل له شغف بالقانون المنطقي وتعصب له، فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع، فيقع في الحيرة بين شبه الأدلة وشكوكها، ولا يكاد يخلص منها. والذريعة إلى درك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي كما قلناه، إذا جرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى. وأما المنطق فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر، فيساوقه لذلك في الأكثر. فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله تعالى، متى أعوزك فهم المسائل، تشرق عليك أنواره بالإلهام إلى الصواب. والله الهادي إلى رحمته، وما العلم إلا من عند الله.

الفصل الثامن والثلاثون

في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل

إعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات، كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة؛ وعلوم هي آلة ووسيلة لهذه العلوم، كالعربية والحساب

وغيرهما للشرعيات، وكالمنطق للفلسفة. وربما كان آلة لعلم الكلام وأصول الفقه على طريقة المتأخرين. فأما العلوم التي هي مقاصد، فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار؛ فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة. وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما، فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط. ولا يوسّع فيها الكلام ولا تفرع المسائل، لأن ذلك يخرج بها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير. فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها. وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها، مع أن شأنها أهم، والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة؛ فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر وشغلاً بما لا يغني.وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق، لا بل وأصول الفقه، لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلاً واستدلالاً وأكثروا من التفاريع والمسائل بما أخرجها عن كونها آلة وصيرها مقصودة بذاتها. وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات فتكون لأجل ذلك من نوع اللغو، وهي أيضاً مضرة بالمتعلمين على الإطلاق، لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بهذه الآلات والوسائل. فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل، فمتى يظفرون بالمقاصد، فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها ولا يستكثروا من مسائلها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقفوا به عنده. فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل؛ ورأى من نفسه قياماً بذلك وكفاية به فليختر لنفسه ما شاء من المراقي صعباً أو سهلاً وكل ميسر لما خلق له.

الفصل التاسع والثلاثون

في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه.

إعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعده من الملكات. وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات. وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه. واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان، باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات. فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه؛ لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب؛ إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة.وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر، أمم المغرب،في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم. وأما أهل الأندلسي فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم. إلا انه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط؛ بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل، وأخذهم بقوانين

العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب.ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط اكثر من جميعها، الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة، لو كان فيها سند لتعليم العلوم. لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم، ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول. وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم. وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها؛ إلا ان عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته اكثر مما سواه؛ وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الاندلس، واستقروا بتونس، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك.وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا، ولا أدري بم عنايتهم منها. والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة، ولا يخلطونه بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده، كما تعلم سائر الصنائع، ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان. وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة، ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه، ويبتغيه من أهل صنعته.فأما أهل إفريقية والمغرب؛ فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة؛ وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها. وليس لهم ملكة في غير

أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام وربما كان أهل إفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب، لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل؛ إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة، لما أن أكثر محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله.وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي. وقصروا في سائر العلوم، لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها. فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر، على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا.ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدأ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس. قال: "لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه وتقديم العربية في التعليم ضرورة، فساداً للغة؛ ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين؛ ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة". ثم قال: "ويا غفلة أهل بلادنا في إن يؤخذ الصبي بكتاب الله فج أول عمره، يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر، غيره أهم عليه منه ". قال: "ثم ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ". ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم علمان، إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط. هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله، وهو لعمري مذهب حسن؛ إلا ان العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد، من تقديم دراسة القرآن، إيثاراً للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع

عن العلم؛ فيفوته القرآن، لأنه ما دام في الحجر منقاد للحكم. فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر؛ فربما عصفت به رياح الشبيبة، فألقته بساحل البطالة؛ فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن له لئلا يذهب خلواً منه. ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم، وقبوله التعليم، لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق. ولكن الله يحكم ما يشاء، لا معقب لحكمه سبحانه.

الفصل الأربعون

في أن الشدة علي المتعلمين مضرة بهم

وذلك أن إرهاق الحد في التعليم مضر بالمتعلم، سيما في أصاغر الولد؛ لأنه من سوء الملكة. ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادةً وخلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه أو منزله وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل؛ فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فارتكس وعاد في أسفل السافلين. وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف، واعتبره في كل من يملك أمره عليه. ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به. وتجد ذلك فيهم استقراء. وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى إنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخرج، ومعناه في الاصطلاح

المشهور التخابث والكيد، وسببه ما قلناه. فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم في التأديب. وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه، الذي أئمة في حكم المعلمين والمتعلمين : لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً". ومن كلام عمر رضي الله عنه: "من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله ". حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلماً بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له، فإنه أعلم بمصلحته.ومن أحسن مذاهب التعليم، ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده. قال خلف الأحمر: بعث إلى الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: "يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه؛ فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن وعلمه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم، إذا دخلوا عليه؛ ورفع مجالس القواد، إذا حضروا مجلسه. ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه، فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه. وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة. انتهى".

الفصل الحادي والأربعون

في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب والفضائل: تارة علماً وتعليماً وإلقاءً؛ وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً. فعلى

قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم. ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين. فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ، يفيده تمييز الاصطلاحات، بما يراه من اختلاف طرقهم فيها؛ فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل. وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات. ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم. وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني والأربعون

في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظم الفكر في والغوص على المعاني، وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن، أموراً كليةً عامةً؛ ليحكم عليها بأمر على العموم، لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس. ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات. وأيضا يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها، بما اعتادوه من القياس الفقهي. فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن، ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر. أو لا تصير بالجملة إلى مطابقة، وإنما يتفرغ ما في الخارج عما في الذهن من ذلك؛ كالأحكام الشرعية، فإنها فروع

عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة، فتطلب مطابقة ما في الخارج لها، عكس الأنظار في العلوم العقلية، التي يطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج. فهم متعودون في سائر أنظارهم أمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها. والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها، فإنها خفية. ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال، وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها.ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر، إذ كما اشتبها في أمر واحد، فلعلهما اختلفا في أمور، فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الامور، بعضها على بعض، إذا نظروا في السياسة، أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالاتهم؛ فيقعون في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم. ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العمران، لأنهم ينزعون بثقوب أذهانهم، إلى مثل شأن الفقهاء، من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة، فيقعون في الغلط. والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس، لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على حكمها، وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به، ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعميم، ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه، كالسابح لا يفارق البر عند الموج. قال الشاعر:

فلا توغلن إذا ما سبحت فإن السلامة في الساحل

فيكون مأموناً من النظر في سياسته، مستقيم النظر في معاملة أبناء جنسه؛ فيحسن معاشه وتندفع آفاقه ومضاره، باستقامة نظره. وفوق كل ذي علم عليم. ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط، لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس؛ فإنها نظر في المعقولات الثواني. ولعل المواد فيها

ما يمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني. وأما النظر في المعقولات الأول، وهى التي تجريدها قريب، فليس كذلك؛ لأنها خيالية، وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

الفصل الثالث والأربعون

في أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. وأن كان منهم العربي في نسبه، فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة؛ لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة؛ وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه، كان الرجال ينقلونها في صدورهم، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة، بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتآليف والتدوين، ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة.وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسفون المختصين بحمل ذلك. ونقله القراء أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين؛ لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرباً؛ فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء، إشارة الى هذا. فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه. ومن الحديث، الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرخ. قال : <<تركت فيكم أمرين لن تضفوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي >>. فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية، وتقييد الحديث مخافة ضياعه؛ ثم

احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه؛ ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس، واحتاجت الى علوم أخرى هي وسائل لها: من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد؛ فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم، فاندرجت في جملة الصنائع.وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر، وأن العرب أبعد الناس عنها؛ فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد العرب عنها وعن سوقها. والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر، الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف؛ لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس؛ فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما ربوا في اللسان العربي، فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم.وكذا حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى لاتساع الفن بالعراق. وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفكرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم. وظهر مصداق قوله : <<لو تعلق العلم بأكناف السماء، لناله قوم من أهل فارس >>.وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه مع القيام بالملك عن القيام بالعلم، والنظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولي سياستها، مع ما يلحقهم من

الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع. والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن، وما يجر إليها، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين. وما زالوا يرون لهم حق القيام به، فإنه دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار. حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك، بما هم عليه من البعد عن نسبتها، وامتهن حملتها بما يرون انهم بعداء عنهم مشتغلين بما لا يغني ولا يجدي عليهم، في الملك والسياسة كما ذكرناه في فصل المراتب الدينية. فهذا الذي قررناه هو السبب في أن حملة الشريعة أو عافتهم من العجم.أما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه. واستقر العلم كله صناعة، فاختصت بالعجم وتركها العرب، وانصرفوا عن انتحالها؛ فلم يحملها إلا المعربون من العجم، شأن الصنائع كما قلناه أولاً فلم يزل ذلك في الأمصار الإسلامية ما دامت الحضارة في العجم وببلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر. فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة، التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع، ذهب العلم في العجم جملة لما شملهم من البداوة. واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة. ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم والصنائع. وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر، لما هناك من الحضارة بالدولة التي فيها، فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر. وقد دلنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تآليف، وصلت إلينا إلى هذه البلاد، وهو سعد الدين التفتازاني. وأما غيره من العجم، فلم نر لهم، من بعد الإمام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاماً يعول على نهايته في الإصابة. فاعتبر ذلك وتأمله تر عجباً في أحوال الخليقة. والله يخلق ما يشاء لا إله إلا هو وحده لا شريك له

له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله.

الفصل الرابع والأربعون

في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان

قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

والسر في ذلك أن مباحث العلوم كلها إنما هي في المعاني الذهنية والخيالية، من بين العلوم الشرعية، التي هي أكثر مباحثها في الألفاظ وموادها من الأحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤذية لها، وهي كلها في الخيال؛ وبين العلوم العقلية، وهي في الذهن. واللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم، وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكتها بطول المران لحى ذلك. والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر، وروابط وختام عن المعاني. ولا بد في اقتناص تلك المعاني من الفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عبيها، وجودة الملكة لناظر فيها؛ وإلا فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص. وإذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة، بحيث يتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفاظ عند استعمالها، شأن البديهي والجبلي، زال ذاك الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم، أو خف؛ ولم يبق إلا معاناة ما في المعاني من المباحث فقط. هذا كله إذا كان التعليم تلقينا وبالخطاب والعبارة. وأما إن احتاج المتعلم إلى الدراسة والتقييد بالكتاب ومشافهة الرسوم الخطية من الدواوين بمسائل العلوم، كان هنالك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب؛ وبين الألفاظ المقولة في الخيال. لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على

الألفاظ المقولة. وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة، وإن عرفت بملكة قاصرة كانت معرفتها أيضاً قاصرة، ويزداد على الناظر والمتعلم بذلك حجاب آخر بينه وبين مطلوبة، من تحصيل ملكات العلوم أعوص من الحجاب الأول. وإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وصار إنما يعاني فهم مباحثها فقط. هذا شأن المعاني مع الألفاظ والخط بالنسبة إلى كل لغة. والمتعلمون لذلك في الصغر أشد استحكاماً لملكاتهم. ثم إن الملة الإسلامية لما اتسع ملكها واندرجت الأمم في طيها ودرست علوم الأولين بنبوتها وكتابها، وكانت أمية النزعة والشعار؛ فأخذ الملك والعزة وسخرية الأمم لهم بالحضارة والتهذيب، وصيروا علومهم الشرعية صناعة، بعد أن كانت نقلاً؛ فحدثت فيهم الملكات، وكثرت الدواوين والتآليف؛ وتشوفوا إلى علوم الأمم فنقلوها بالترجمة إلى علومهم وأفرغوها في قالب أنظارهم، وجردوها من تلك اللغات الأعجمية إلى لسانهم واربوا فيها على مداركهم، وبقيت تلك الدفاتر التي بلغتهم الأعجمية نسياً منسياً وطللاً مهجوراً وهباءً منثوراً. وأصبحت العلوم كلها بلغة العرب، ودواوينها المسطرة بخطهم، واحتاج القائمون بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الألسن، لدروسها وذهاب العناية بها. وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان، وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد؛ فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة، صار مقصراً في اللغة العربية، لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل، فقل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى، وهو ظاهر. وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية أعتاص عليه فهم المعاني منها كما مر. إلا أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية، كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية. وكذا

أيضا شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي. ولهذا نجد الكثير من علماء الاعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراءتها ظاهراً يخففون بذلك عن أنفسهم مؤونة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني. وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك؛ بتمام ملكته، وإنه صار له فهم الأقوال من الخط، والمعاني من الأقوال، كالجبلة الراسخة، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني. وربما يكون الدؤوب على التعليم والمران على اللغة، وممارسة الخط يفضيان بصاحبهما إلى تمكن الملكة، كما نجده في الكثير من علماء الاعاجم؛ إلا أنه في النادر. وإذا قرن بنظيره من علماء العرب وأهل طبقته منهم، كان باع العربي أطول وملكته أقوى، لما عند المستعجم من الفتور بالعجمة السابقة التي يؤثر القصور بالضرورة ولا يعترض ذلك بما تقدم بأن علماء الإسلام أكثرهم العجم، لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التي قررنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملتها العلوم. وأما عجمة اللغة فليست من ذلك، وهي المرادة هنا. ولا يعترض ذلك أيضاً مما كان لليونانيين في علومهم من رسوخ القدم فإنهم إنما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم. والأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه، ومن غير خطه الذي يعرف ملكته. فلهذا يكون له ذلك حجاباً كما قلناه. وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج، وسائر من ليس من أهل اللسان العربي. وفي ذلك آيات للمتوسمين.

الفصل الخامس والأربعون

في علوم اللسان العربي

أركانه أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب. ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام، حسبما يتبين في الكلام عليها فناً فناً. والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدم، لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها، لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه؛ فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة، إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة، وليست كذلك اللغة. والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق.

علم النحو:

إعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني. مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال.أي الحركات الى الذوات من غير تكفف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة

العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد له من ألفاظ تخضه بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب. وهذا هو معنى قوله : <<أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً >>. فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيآت، أي الأوضاع، اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها. إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا.فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك، الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها، لجنوحها إليه باعتياد السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم؛ فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه. مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم، فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو. وأول من كتب فيها أبو الاسود الدؤلي من بني كنانة، ويقال بإشارة عليّ رضي الله عنه، لأنه رأى تغير الملكة، فأشار عليه بحفظها، ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة؛ ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، أحوج ما كان الناس إليها، لذهاب تلك الملكة من العرب. فهذب الصناعة وكمل أبوابها. وأخذها عنه سيبويه، فكمل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها، ووضع

فيها كتابه المشهور، الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده. ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتباً مختصرة للمتعلمين، يحذون فيها حذو الإمام في كتابه.ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها، في الكوفة والبصرة: المصرين القديمين للعرب. وكثرت الأدلة والحجاج بينهم، وتباينت الطرق في التعليم، وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القران، باختلافهم في تلك القواعد، وطال ذلك على المتعلمين. وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصروا كثيراً من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل، كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادىء للمتعلمين، كما فعله الزمخشري في المفضل وابن الحاجب في المقدمة له. وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى، وابن معطي في الأرجوزة الألفية. وبالجملة فالتآليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها، وطرق التعليم فيها مختلفة؛ فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين. والكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك.وقد كادت هذه الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران، ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر، منسوب إلى جمال الدين ابن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة. وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الإعراب. وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها؛ فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحى نحاة أهل الموصل، الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه. والله يزيد في الخلق ما يشاء.

علم اللغة:

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية. وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي، في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه. ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم، ميلاً مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين؛ خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين. وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي. ألف فيها كتاب العين، فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها، من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي.وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديدة حاصرة؛ وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين، وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد. لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين؛ فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية. ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك. ثم الثالث والرابع. ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين، فيكون واحداً، فتكون كلها أعداداً على توالي العدد من واحد إلى سبعة وعشرين، فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب وهو أن تجمع الأول مع الأخير وتضرب المجموع في نصف العدة. ثم تضاعف لأجل قلب الثنائي، لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب، فيكون الخارج جملة الثنائيات.وتخرج الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجتمع من واحد إلى ستة وعشرين على

توالي العدد؛ لأن كل ثنائية تزيد عليها حرفاً، فتكون ثلاثية. فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية، وهي ستة وعشرون حرفاً، بعد الثنائية؛ فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي العدد، ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة، جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية، فيخرج مجموع تركيبها من حروف المعجم. وكذلك في الرباعي والخماسي. فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه، ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف. واعتمد فيه ترتيب المخارج، فبدأ بحروف الحلق، ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الأضراس، ثم الشفة؛ وجعل حروف العلة آخراً، وهي الحروف الهوائية. وبدأ من حروف الحلق بالعين، لأنه الأقصى منها. فلذلك سمي كتابه بالعين، لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا، وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ. ثم بين المهمل منها من المستعمل، وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لقلة استعمال العرب له لثقله، ولحق به الثنائي لقلة دورانه، وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب، فكانت أوضاعه اكثر لدورانه. وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوفاه.وجاء أبو بكر الزبيدى وكتب لهشام المؤيد بالأندلس، في المائة الرابعة؛ فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله، وكثيراً من شواهد المستعمل، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص.وألف الجوهري من المشارقة، كتاب الصحاح، على الترتيب المتعارف لحروف المعجم؛ فجعل البداءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة، لإضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم، فيجعل.ذلك باباً.. ثم يأتي بالحروف أول الكلمة، على ترتيب حروف المعجم أيضاً، ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها. وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل.ثم ألف

فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية، في دولة علي بن مجاهد،كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين. وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها؛ فجاء من أحسن الدواوين. ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس. وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها، فكانا توأمى رحم وسليلي أبوة.ولكراع من أئمة اللغة كتاب المنجد، ولابن دريد كتاب الجمهرة ولابن الأنباري كتاب الزاهر.هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه. وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلم ومستوعبة لبعض الأبواب أو لكنها؛ إلا أن وجه الحصر فيها خفي، ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب كما رأيت. ومن الكتب الموضوعة أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز، وسماه أساس البلاغة، بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ، فيما تجوزت به من المدلولات، وهو كتاب شريف الإفادة.تم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم، ثم تستعمل في الامور الخاصة ألفاظاً أخرى خاصة بها، فرق ذلك عندنا، بين الوضع والاستعمال، واحتاج الناس إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ؛ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحناً وخروجاً عن لسان العرب. واختص بالتأليف في هذا المنحي الثعالبي، وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة، وهو من آكد ما يأخذ به اللغوي نفسه، أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه. فليس معرفة الوضع الأول بكاف في التركيب، حتى يشهد له استعمال العرب لذلك. وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديب في فني نظمه ونثره، حذرا من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها، وهو أشر من اللحن في الإعراب وأفحش. وكذلك ألف بعض المتأخرين في الألفاظ

المشتركة وتكفل بحصرها، وإن لم يبلغ إلى النهاية في ذلك، فهو مستوعب للأكثر. وأما المختصرات الموجودة في هذا الفن، المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال، تسهيلاً لحفظها على الطالب، فكثيرة مثل الألفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما. وبعضها أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الأهم على الطالب للحفظ. والله الخلاق العليم، لا رب سواه.

فصل: واعلم أن النقل الذي تثبت به اللغة، إنما هو النقل عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني، لا تقل إنهم وضعوها لأنه متعذر وبعيد، ولم يعرف لأحد منهم. وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم نعلم استعماله، على ما عرف استعماله في ماء العنب، باعتبار الإسكار الجامع. لأن شهادة الاعتبار في باب القياس إنما يدركها الشرع الدال على صحة القياس من أصله. وليس لنا مثله في اللغة إلا بالعقل، وهو محكم، وعلى هذا جمهور الأئمة. وإن مال إلى القياس فيها القاضي وابن سريج وغيرهم. لكن القول بنفيه أرجح. ولا تتوهمن أن إثبات اللغة في باب الحدود اللفظية، لان الحد راجع إلى المعاني، ببيان أن مدلول اللفظ المجهول الخفي هو مدلول الواضح المشهور، واللغة إثبات أن اللفظ كذا، لمعنى كذا، والفرق في غاية الظهور.

علم البيان:

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة، وهو من العلوم اللسانية،لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده. ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني. وذلك أن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إما تصور مفردات تسند وبسند إليها وبفضي بعضها الى بعض، والدلالة على هذه هي المفرادت من الأسماء والأفعال والحروف؛ وأما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات. وهذه كلها هي صناعة

النحو. ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات، المحتاجة للدلالة، أحوال المتخاطبين أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل؛ وهو محتاج إلى الدلالة عليه، لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه. وإذا لم يشتمل على شيء منها، فليس من جنس كلام العرب؛ فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة.إلا ترى أن قولهم: (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد) من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم. فمن قال: جاءني زيد، أفاد أن اهتمامه بالمجيء، قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني، أفاد أن اهتمامه بالشخص، قبل المجيء المسند. وكذا التعبير عن أجزاء الجملة، بما يناسب المقام، من موصول أو مبهم أو معرفة. وكذا تأكيد الإسناد على الجملة، كقولهم: زيد قائم، وإن زيداً قائم، وإن زيداً لقائم؛ متغايرة كلها في الدلالة، وإن استوت من طريق الإعراب؛ فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن، والثاني المؤكد بـ (إن) يفيد المتردد، والثالث يفيد المنكر، فهي مختلفة. وكذلك تقول: جاءني الرجل، ثم تقول مكانه بعينه جاءني رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه، وانه رجل لا يعادله أحد من الرجال. ثم الجملة الإسنادية تكون خبرية، وهي التي لها خارج تطابقه أولاً، وإنشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه. ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذ كان للثانية محل من الإعراب: فينزل بذلك منزلة التابع المفرد نعتاً أو توكيداً أو بدلاً بلا عطف، أو يتعين العطف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب. ثم يقتضي المحل الإطناب أو الإيجاز فيورد الكلام عليهما. ثم قد يدل باللفظ ولا يراد منطوقه ويراد لازمه إن كان مفرداً، كما تقول: زيد أسد، فلا تريد حقيقة الاسد لمنطوقه، وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد، وتسمى هذه استعارة.وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه، كما تقول: زيد كثير

رماد القدور،وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف، أن كثرة الرماد ناشئة عنهما، فهي دالة عليهما. وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب، وإنما هي هيئات وأحوال للواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه، فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال، التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمى علم البلاغة؛ والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الإستعارة والكناية كما قلناه وسمى علم البيان. وألحقوا بهما صنفاً آخر، وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله؛ أو تجنيس يشابه بين ألفاظه؛ أو ترصيع يقطع أوزانه؛ أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه، لاشتراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد، وأمثال ذلك، ويسمى عندهم علم البديع.وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان، وهو اسم الصنف الثاني؛لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه. ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى، وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها. ثم لم!تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه، على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب، وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان، فجعل هذا الفن من بعض أجزائه. وأخذه المتأخرون من كتابه، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد، كما فعله السكاكي في كتاب التبيان، وابن مالك في كتاب المصباح، وجلال الدين القزويني في كتاب الإيضاح والتلخيص، وهو اصغر حجماً

من الإيضاح، والعناية به لهذا العهد، عند أهل المشرق، في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره. وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة، وسببه والله أعلم إنه كمالي في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران. والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرناه. أو نقول لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق، كتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن وهو أصله. وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً. وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب،وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المأخذ. وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما. وممن ألف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيق، وكتاب العمدة له مشهور. وجرى كثير من اهل إفريقية والأندلس على منحاه. واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة؛ وهي أعلى مراتب الكمال، مع الكلام فيما يختص بالألفاظ، في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر فوقه.فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك، لأنهم فرسان الكلام وجهابذته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه. وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون، وأكثر تفاسير المتقدمين غفل منه، حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير، وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن، بما يبدي البعض من أعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة. ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل

السنة، مع وفور بضاعته من البلاغة. فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة، حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنها بدعة فيعرض عنها ولا تضره في معتقده، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب، للظفر بشيء من الإعجاز، مع السلامة من البدع والأهواء. والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل.

علم الأدب:

هذا العلم لا موضوع له، ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها. وإنما المقصود منه عند
أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور، على أساليب العرب ومناحيهم؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة، من شعر عالي الطبقة وسجع متساوٍ في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو، مبثوثة أثناء ذلك، متفرقة، يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية؛ مع ذكر بعض من أيام العرب،يفهم به ما يقع في أشعارهم منها. وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث. إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية؛ فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم، ليكون قائماً على فهمها. وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي

القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبغ لها وفروع عنها. وكتب المحدثين في ذلك كثيرة.وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن، لما هو تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به، حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه، فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة. وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني وهو ما هو، كتابه في الأغاني، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم. وجعل مبناه على الغناء في المائة صولت التي اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم، في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنى له بها. ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان. والله الهادي للصواب.

الفصل السادس والأربعون

في أن اللغة ملكة صناعية

إعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر الى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً ومعنى الحال

أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة.فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم؛ كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم.هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال.وهذا هو معني ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم، ولم يأخذوها عن غيرهم. ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الاعاجم. وسبب فسادها أن الناشىء من الجيل، صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضاً؛ فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فساد اللسان العربي.ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين أمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية. والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق.

الفصل السابع والأربعون

في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر ولغة حمير

وذلك أنا نجذها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري،ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول؛ فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد. إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرق، لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها. ويبقى ما تقتضيه الأحوال- ويسمى بساط الحال- محتاجاً إلى ما يدل عليه. وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات، في تراكيب الألفاظ وتأليفها، من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب. وقد يدل عليها بالحروف، غير المستقلة. ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه، فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن.وهذا معنى قوله: <<أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً>>. واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة: "أني أجد في كلام العرب تكراراً في قولهم: زيد قائم، وإن زيداً قائم، وإن زيداً لقائم والمعنى واحد". فقال له: إن معانيها مختلفة، فالأول: لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد، والثاني: لمن سمعه فتردد فيه، والثالث: لمن عرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال.وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد. ولا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت، وأن

اللسان العربي فسد، اعتباراً بما وقع أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه. وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم، وألقاها القصور في أفئدتهم؛ وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الأولى، والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم، وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم. والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك. ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط، الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعاً معروفاً وهو الإعراب، وهو بعض من أحكام اللسان. وإنما وقعت العناية بلسان مضر، لما فسد بمخالطتهم الاعاجم، حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولاً، فانقلب لغة أخرى.وكان القرآن منزلاً به والحديث النبوي منقولاً بلغته وهما أصلا الدين والملة، فخشي تناسيهما وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلا به؛ فاحتيج إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه. وصار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل، سماه أهله بعلم النحو، وصناعة العربية؛ فاصبح فناً محفوظاً وعلماً مكتوباً وسلماً إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله راقياً. ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه، نعتاض عن الحركات الإعرابية التي فسدت في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه؛ فتكون لها قوانين تخصها. ولعلها تكون في أواخره غلى غير المنهاج الأول في لغة مضر، فليست اللغات وملكاتها مجاناً.ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته. تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على

مقاييس اللغة المضرية وقوانينها، كما يزعم بعضهم في اشتقاق (القيل) في اللسان الحميري انه من القول وكثير من أشباه هذا، وليس ذلك بصحيح. ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها، كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر؛ إلا أن العناية بلسان مضر، من أجل الشريعة كما قلناه، حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء، وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد، حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف؛ فإنهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأمصار، كما هو مذكور في كتب العربية، أنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى. وما ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف، وإن كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي، بل يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف، وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق؛ حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم وأجيال ومختصاً بهم لا يشاركهم فيها غيرهم. حتى إن من يريد التعرف والانتساب إلى الجيل والدخول فيها يحاكيهم في النطق بها. وعندهم أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القافي. ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها، فإن هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن عكرمة بن حصفة بن قيس بن عيلان من سليم بن منصور، ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور. وهم لهذا العهد اكثر الأمم في المعمور وأغلبهم، وهم من أعقاب مضر، وسائر الجيل معهم من بني كهلان، في النطق بهذه القاف، أسوة. وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة، ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين، ولعلها لغة النبي بعينها. وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن (اهدنا الصراط

المستقيم) بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته، ولم أدر من أين جاء هذا؛ فإن أهل الأمصار أيضاً لم يستحدثوها، وإنما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتح. وأهل الجيل أيضاً لم يستحدثوها، إلا انهم أبعد من مخالطة الاعاجم من أهل الامصار. فهذا يرجح، فيما يوجد من اللغة لديهم، أنه من لغة سلفهم. هذا مع اتفاق أهل الجيل كلهم شرقاً وغرباً في النطق بها، وأنها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري. والظاهر أن هذه القاف التي ينطق بها أهل الجيل العربي البدوي هو من مخرج القاف عند أولهم من أهل اللغة، وأن مخرج القاف متسع، فأوله من أعلى الحنك وآخره مما يلي الكاف. فالنطق بها من أعلى الحنك هو لغة الامصار؛ والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيل البدوي. وبهذا يندفع ما قاله أهل البيت من فساد الصلاة بتركها في أم القرآن؛ فأن فقهاء الأمصار كلهم على خلاف ذلك. وبعيد أن يكونوا أهملوا ذلك، فوجهه ما قلناه. نعم نقول إن الأرجح والأولى ما ينطق به أهل الجيل البدوي لأن تواترها فيهم كما قدمناه، شاهد بأنها لغة الجيل الأول من سلفهم، وأنها لغة النبي ﷺ. ويرجح ذلك أيضاً إدغامهم لها في الكاف لتقارب المخرجين. ولو كانت كما ينطق بها أهل الأمصار من أصل الحنك، لما كانت قريبة المخرج من الكاف، ولم تدغم. ثم إن أهل العربية قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف، وجهي التي ينطق بها أهل الجيل البدوي من العرب لهذا العهد، وجعلوها متوسطة بين مخرجي القاف والكاف. على أنها حرف مستقل، وهو بعيد. والظاهر أنها من آخر مخرج القاف لاتساعه كما قلناه. ثم إنهم يصرحون باستهجانه واستقباحه كأنهم لم يصح عندهم أنها لغة الجيل الأول. وفيما ذكرناه من اتصال نطقهم بها، لأنهم إنما ورثوها من سلفهم جيلاً بعد جيل، وأنها شعارهم الخاص بهم، دليل على أنها لغة ذلك الجيل الأول، ولغة النبي ﷺ كما تقدم ذلك كله. وقد يزعم زاعم أن

هذه القاف التي ينطق بها أهل الأمصار ليست من هذا الحرف، وأنها إنما جاءت من مخالطتهم للعجم، وإنهم ينطقون بها كذلك؛ فليست من لغة العرب. ولكن الأقيس كما قدمناه من أنهما حرف واحد متسع المخرج. فتفهم ذلك. والله الهادي المبين.

الفصل الثامن والأربعون

في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر

إعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة، ولا بلغة أهل الجيل؛ بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا، وهي عن لغة مضر أبعد.فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر، يشهد له ما فيها من التغاير الذي بعد عن صناعة أهل النحو لحناً. وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم؛ فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الاندلس معهما، وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد.وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل؛ فلأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة. فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد، لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه. وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم. فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى. واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق. اما إفريقية والمغرب، فخالطت العرب فيها البرابرة

العجم بوفور عمرانها بهم، ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل؛ فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة. والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان الأول أبعد. وكذا المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم، وتداولت بينهم لغاتهم في الأكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولاً وداياتٍ وأظآراً ومراضع؛ ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والإفرنجة. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغةٍ أخرى مخصوصة بهم، تخالف لغة مضر ويخالف أيضاً بعضها بعضاً كما نذكره، وكأنها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم. والله يخلق ما يشاء ويقدر.

الفصل التاسع والأربعون

في تعلم اللسان المضري

إعلم أن ملكة اللسان المضري، لهذا العهد، قد ذهبت وفسدت. ولغة أهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القرآن، وإنما هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه. إلا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكناً، شأن سائر الملكات. ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم؛ حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم؛ ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من

أساليبهم وترتيب ألفاظهم؛ فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة. ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال. والذوق يشهد بذلك، وهو ينشا ما بين هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما يذكر بعد. وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً ونثراً. ومن حصل على هذه الملكات، فقد حصل على لغة مضر، وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها، وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها. والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه.

الفصل الخمسون

في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية. فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً، ولا يحكمها عملاً مثل أن يقول بصير بالخياطة، غير محكم لملكتها، في التعبير عن بعض أنواعها: الخياطة هي أن تدخل الخيط، في خرت الإبرة، ثم تغرزها في لفقي الثوب مجتمعين، وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا، ثم تردها إلى حيث ابتدأت، وتخرجها قدام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقين الأولين؛ ثم يتمادى على وصفه إلى آخر العمل، ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها. وهو إذا طولب ان يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً.وكذا لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول: هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه، وآخر

قبالتك ممسك بطرفه الاخر وتتعاقبانه بينكما، وأطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية، إلى أن ينتهي إلى آخر الخشبة. وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه.وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل. وكذلك تجد كثيراً من جهابذة النحاة، والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده ، أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك، والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي. وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية.فمن هنا يعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية، وأنها مستغنية عنها بالجملة. وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة، وهو قليل واتفاقي، وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه. فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم؛ فكان فيه " جزء صالح من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه والمحصل له، قد حصل على خط من كلام العرب واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته. وتنبه به لشأن الملكة، فاستوفى تعليمها، فكان أبلغ في الإفادة.ومن هؤلاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا، فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة. وأما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك، إلا من القوانين النحوية، مجردة عن أشعار العرب وكلامهم؛ فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون لشأنها، فتجدهم يحسبون انهم قد

حصلوا على رتبة في لسان العرب، وهم أبعد الناس عنه. وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها اقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها ممن سواهم، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم؛ فيسبق إلى المبتدىء كثير من الملكة أثناء التعليم، فتنطبع النفس بها وتستعد إلى تحصيلها وقبولها.وأما من سواهم من اهل المغرب وإفريقية وغيرهم؛ فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً، وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب؛ إلا إن أعربوا شاهداً أو رجحوا مذهباً، من جهة الاقتضاء الذهني، لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه. فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل، وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وأفاد ذلك حملتها في هذه الأمصار وآفاقها البعد عن الملكة بالكلية، وكأنهم لا ينظرون في كلام العرب. وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه، وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان. وتلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم؛ لكنهم اجروها على غير ما قصد بها، وأصاروها علماً بحتاً وبعدوا عن ثمرتها. وتعلم ما قررناه في هذا الباب، أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه. ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم. والله مقدر الامور كلها، والله أعلم بالغيب.

الفصل الحادي والخمسون

في تفسير لفظة الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه

وبيان أنها لا تحصل غالباً للمستعربين من العجم

إعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان، ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان. وقد مر تفسير البلاغة، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه، بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك. فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك، على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده؛ فإذا اتصلت معاناته لذلك بمخالطة كلام العرب، حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب، حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب؛ وإن سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى، مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر، بل وبغير فكر، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة. فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات، أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي. ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادىء الرأي أنها جبلة وطبع.وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في صفها، وقد مر ذلك. وإذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجود النظم

وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو رام صاحب هذه الملكة حيداً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة، لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه، لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده. وإذا عرض عليه الكلام، حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم. وإنما يعجز عن الاحتجاج بذلك، كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية؛ فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء. وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب، حتى يصير كواحد ومثاله: لو فرضنا صبياً من صبيانهم، نشأ وربي في جيلهم، فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها، حتى يستولي على غايتها. وليس من العلم القانوني في شيء، وإنما هو بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه. وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل، بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك، بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين أحيائهم. والقوانين بمعزل عن هذا. واستعير لهذه الملكة، عندما ترسخ وتستقر، اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان والذوق إنما هو موضوع لإدراك الطعوم. لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان، من حيث النطق بالكلام، كما هو محل لإدراك الطعوم، استعير لها اسمه. وأيضا فهو وجداني اللسان، كما أن الطعوم محسوسة له؛ فقيل له ذوق. وإذا تبين لك ذلك، علمت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه المضطرين إلى النطق به لمخالطة أهله، كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب، فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا أمرها؛ لأن قصاراهم بعد طائفة من العمر وسبق ملكة أخرى إلى اللسان، وهي لغاتهم، أن يعتنوا بما يتداوله أهل المصر بينهم في المحاورة من مفرد ومركب، لما يضطرون إليه من ذلك. وهذه الملكة قد ذهبت لأهل الامصار، وبعدوا عنها كما"تقدم. وإنما لهم في

ذلك ملكة أخرى وليست هذه ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف أحكام تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب، فليس من تحصيل الملكة في شيء، إنما حصل أحكامها كما عرفت. وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر لكلام العرب. فإن عرض لك ما تسمعه، من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاماً مع حصول هذه الملكة لهم، فاعلم أن أولئك القوم الذين نسمع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط. أما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم، فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها؛ وكأنهم في أول نشأتهم بمنزلة الأصاغر من العرب الذين نشأوا في أجيالهم، حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها. فهم وإن كانوا عجماً في النسب فليسوا بأعاجم في اللغة والكلام، لأنهم أدركوا الملة في عنفوانها واللغة في شبابها، ولم تذهب آثار الملكة منها ولا من أهل الأمصار. ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته.واليوم الواحد من العجم، إذا خالط أهل اللسان العربي بالأمصار، فأول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان العربي ممتحية الآثار. ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي. ثم إذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالمدارسة والحفظ ليستفيد تحصيلها، فقل أن يحصل له ما قدمناه من أن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة. وإن فرضنا عجمياً في النسب سلم من مخالطة اللسان العجمي بالكلية، وذهب إلى تعلم هذه الملكة بالحفظ والمدارسة، فربما يحصل له ذلك، لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر. وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها، وهو غلط أو مغالطة؛ وإنما حصلت له الملكة إن حصلت في تلك القوانين البيانية، وليست من ملكة العبارة في شيء. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثاني والخمسون

في أن أهل الأمصار علي الإطلاق قاصرون فم تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربي

كان حصولها له أصعب وأعسر

والسبب في ذلك ما يسبق إلى المتعلم، من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة، بما سبق إليه من اللسان الحضري الذي أفادته العجمة، حتى نزل بها اللسان عن ملكته الأولى إلى ملكة أخرى هي لغة الحضر لهذا العهد ولهذا نجد المعلمين يذهبون إلى المسابقة بتعليم اللسان للولدان. وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم، وليس كذلك، وإنما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب. نعم صناعة النحو أقرب إلى مخالطة ذلك. وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق في العجمة وأبعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المصرية وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ. واعتبر ذلك في أهل الأمصار.فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول، كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم. ولقد نقل ابن الرقيق أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له: يا أخي ومن لا عدمت فقده، أعلمني أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي، وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج. وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلاً، ليس من هذا حرفاً واحداً. وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله. وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري، وسببه ما ذكرنا. وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة نازلة عن الطبقة، ولم تزل كذلك، لهذا العهد. ولهذا ما كان بإفريقية من

مشاهير الشعراء، إلا ابن رشيق وابن شرفي. وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها، ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن ماثلة إلى القصور. وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة، بكثرة معاناتها وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً. وكان فيهم ابن حيان المؤرخ إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الراية لهم فيها، وابن عبد ربه والقسطلي وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف؛ لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين، حتى كان الانفضاض والجلاء أيام تغلب النصرانية. وشغلوا عن تعلم ذلك، وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلها، فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض.وكان من آخرهم صالح بن شريف، ومالك بن المرحل من تلاميذ الطبقة الإشبيليين بسبتة وكانت دولة بني الاحمر في أولها. وألقت الأندلس أفلاذ كبدها، من أهل تلك الملكة بالجلاء إلى العدوة، من عدوة إشبيلية إلى سبتة، ومن شرق الأندلس إلى إفريقية. ولم يلبثوا إلى أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة، لعسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم، بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية، وهي منافية لما قلناه.ثم عادت الملكة من بعد ذلك إلى الأندلس كما كانت، ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم؛ ثم إبراهيم الساحلي الطويجن وطبقته، وقفاهم ابن الخطيب من بعدهم الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه. وكان له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع أثره تلميذه من بعده. وبالجملة فشأن هذه الملكة بالاندلس أكثر، وتعليمها أيسر وأسهل، بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان ومحافظتهم عليها وعلى علوم الأدب وسند تعليمها. ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم إنما هم طارئون عليهم. وليست عجمتهم أصلاًللغة

أهل الأندلس والبربر في هذه العدوة، وهم أهلها ولسانهم لسانها إلا في الأمصار فقط. وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية؛ فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الاندلس. واعتبر ذلك بحال أهل المشرق لعهد الدولة الأموية والعباسية؛ فكان شـأنهم شأن أهل الأندلس في تمام هذه الملكة وإجادتها، لبعدهم لذلك العهد عن الاعاجم ومخالطتهم إلا في القليل. فكان أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم، وكان فحول الشعراء والكتاب لعهدهم أوفر لتوفر العرب وأبنائهم بالمشرق.وانظر ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من نظمهم ونثرهم، فإن ذلك الكتاب هو كتاب العرب وديوانهم، وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم، وملتهم العربية وسير نبيهم لمجز وآثار خلفائهم وملوكهم، وأشعارهم وغناؤهم وسائر مغانيهم له، فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب. وبقي أمر هذه الملكة مستحكماً في المشرق في الدولتين، وربما كانت فيهم أبلغ ممن سواهم ممن كان في الجاهلية كما نذكره بعد. حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم، وصار الأمر للأعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم. وذلك في دولة الديلم والسلجوقية. وخالطوا أهل الأمصار وكثروهم فامتلأت الارض بلغاتهم، واستولت العجمة على أهل الأمصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته، وصار متعلمها منهم مقصراً عن تحصيلها. وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور، وإن كانوا مكثرين منه. والله يخلق ما يشاء ويختار، والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق لا رب سواه.

الفصل الثالث والخمسون
في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

إعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحدٍ من وهو القافية. وفي النثر وهو الكلام غير الموزون، وكل واحدٍ من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام. فأما الشعر، فمنه المدح والهجاء والرثاء. وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافيةٌ واحدةٌ يسمى سجعاً؛ ومنه المرسل، وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاءً، بل يرسل إرسالاً من غير تقييدٍ بقافيةٍ ولا غيرها. ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم.وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً. بل تفصيل آياتٍ ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها. ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافيةً، وهو معنى قوله تعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم }[سورة 000الآية 000] وقال: {قد فضلنا الآيات } [سورة 000الآية 000]. وتسمى آخر الآيات فيه فواصل، إذ ليست أسجاعاً، ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع، ولا هي أيضاً قواف. وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه، واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا، ولهذا سميت السبع المثاني.وانظر هذا ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني، يشهد لك الحق برحجان ما قلناه.واعلم أن لكل واحدٍ من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح للفن الآخر، ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب، والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك. وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة

الأسجاع، والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض. وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه، ولم يفترقا إلا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في هذا المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه، وخلطوا الأساليب فيه، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق. وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جاريةً على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة، لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال، من أحوال المخاطب والمخاطب.وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر، فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه؛ إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل، والإطناب في الأوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات، حيث لا تدعو لذلك كله ضرورة في الخطاب. والتزام التقفية أيضاً من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان، وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه. والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل، وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر. وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له، ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فإن المقامات مختلفة، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثباتٍ أو تصريحٍ أو إشارةٍ وكنايةٍ واستعارةٍ.وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة علي ألسنتهم، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال؛ فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوته. وولعوا بهذا المسجع، يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود، ومقتضى الحال فيه. ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالإسجاع

والألقاب البديعية، ويغفلون عفا سوى ذلك. واكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر انحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف، إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة، لا يجتمعان معها؛ فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس. ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس. فتأفل ذلك وانتقد بما قدمناه لك، تقف على صحة ما ذكرناه. والله الموفق للصواب، بمنه وكرمه، والله تعالى أعلم.

الفصل الرابع والخمسون

في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل

والسبب في ذلك أنه كما بيناه ملكةٌ في اللسان؛ فإذا سبقت إلى محله ملكة أخرى، قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة. لأن قبول الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة الأولى أسهل وأيسر. وإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعةً لها في المدة القابلة وعائقةً عن سرعة القبول، فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكة. وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الإطلاق. وقد برهنا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان. فاعتبر مثله في اللغات، فإنها ملكات اللسان، وهي بمنزلة الصناعة. وانظر من تقدم له شيء من العجمة، كيف يكون قاصراً في اللسان العربي أبداً. فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي علي ملكة اللسان العربي، ولا يزال قاصراً فيه ولو تعلمه وعلمه. وكذا البربري والرومي الإفرنجي قل أن تجد أحداً منهم محكماً لملكة اللسان

العربي. وما ذلك إلا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر، حتى إن طالب العلم من أهل هذه الألسن إذا طلبه بين أهل اللسان العربي ومن كتبهم جاء مقصراً في معارفه عن الغاية والتحصيل، وما أتى إلا من قبل اللسان. وقد تقدم لك من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصنائع. وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدحم. وإن من سبقت له إجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى أو يستولي فيها على الغاية. والله خلقكم وما تعلمون.

الفصل الخامس والخمسون

في صناعة الشعر ووجه تعلمه

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم، ويوجد في سائر اللغات؛ إلا أنا الآن إنما نتكلم في الشعر الذي للعرب. فإن أمكن أن يجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصودهم من كلامهم، وإلا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه. وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى، إذ هو كلام مفضل قطعاً قطعاً، متساويةً في الوزن، متحدةً في الحرف الأخير من كل قطعة. وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً؛ ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه روياً وقافيةً؛ ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدةً وكلمةً. وينفرد كل بيتٍ منه بإفادته في تراكيبه، حتى كأنه كلام وحده، مستقل عما قبلة وما بعده. وإذا أفرد كان تاما في بابه في مدحٍ تشبيتٍ أو رثاءٍ؛ فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقلّ في إفادته. ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك، ويسترد للخروج من فنٍ إلى فنٍ ومن مقصودٍ إلى مقصودٍ، بأن يوطيّء المقصود الأول ومعانيه، إلى أن يناسب المقصود الثاني، ويبعد الكلام عن التنافر. كما يستطرد من التسشبيت إلى المدح؛ ومن وصف البيداء والطلول، إلى وصف الركاب أو الخيل أو

الطيف؛ ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وعساكره؛ ومن التفجع والعزاء في الرثاء إلى التأبين وأمثال ذلك.ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد، حذراً من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزنٍ الى وزنٍ يقاربه. فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على كثير من الناس. ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض. وليس كل وزنٍ يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن، وإنما هي أوزان مخصوصة يسميها أهل تلك الصناعة البحور. وقد حصروها في خمسة عشر بحراً، بمعنى أنهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظماً.واعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفاً عند العرب؛ ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم. وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن ملكاتهم كلها. والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم، حتى يحصل شبه في تلك الملكة.والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين، لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده، ويصلح أن ينفرد دون ما سواه؛ فيحتاج من أجل ذلك إلى نوع تلطف في تلك الملكة، حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب، ويبرزه مستقلاً بنفسه. ثم يأتي ببيت آخر كذلك، ثم ببيت آخر، ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده. ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها مع بعضٍ بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة. ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محّكا للقرائح في استجادة أساليبه، وشحذ الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه. ولا تكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق، بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها وباستعمالها فيه.ولنذكر هنا مدلول لفظة

الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم. فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه. ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة الإعراب؛ ولا باعتبار إفادته أصل المعنى من خواص التراكيب، الذي هو وظيفة البلاغة والبيان؛ ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية؛ وإنما ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان؛ فيرضها فيه رصاً، كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، كان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على انحاء مختلفة، فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله:"يا دار مية بالعليا فالسند".ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله:"قفا نسأل الدار التي خف أهلها".أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله:"قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ".أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله:"ألم تسأل فتخبرك الرسوم ".ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله:"حي الديار بجانب الغزل ".أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله:

أسقي طلولهم أجش هذيـــم وغدت عليهم نضرة ونعيـــــــــم

أو بسؤال السقيا لها من البرق كقوله:

يا برق طالع منزلاً بالأبرق واحد السحاب لها حداء الأينـــــــــق

أو مثل التفجع في الرثاء باستدعاء البكاء كقوله:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله:"أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي "أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله:

منابت العشب لا حامٍ ولا راعٍ مضى الردى بطويل الرمحِ والباعِ

أو بالإنكارِ على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية:

أيا شجرَ الخابور ما لك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريفِ

أو بتهنئة فريقهِ بالراحة من ثقل وطأتهِ كقوله:

ألقى الرماح ربيعةُ بن نزارِ أودى الردى بقريعك المغوارِ

وأمثالَ ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه. وتنتظم التراكيب فيه بالجمل

وغير الجمل، إنشائيةً وخبريةً، إسميةً أو فعليةً، متفقةً وغير متفقة، مفصولةً وموصولةً؛ على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي، في مكان كل كلمةٍ من الأخرى. يعرفك فيه ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب، من القالب الكلي المجرد في الذهن، من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها. فإن مؤلف الكلام هو كالبناءِ أو النساجِ، والصورة الذهنية المنطبقة، كالقالبِ الذي يبني فيه أو المنوالِ الذي ينسج عليهِ. فإن خرج عن القالب في بنائه أو على

المنوالِ في نسجهِ كانَ فاسداً. ولا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك، لأنا نقول: قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية وقياسية، تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس. وهو قياس علمي صحيح مطرد، كما هو قياس القوانين الإعرابية. وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شئ إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان، حتى تستحكم صورتها؛ فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام بإطلاق. وإن القوانين العلمية من العربية والبيان لا يفيد تعليمه بوجه. وليس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه. وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة يطلع عليها الحافظون لكلامهم، تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية. فإذا نظر في شعر العرب على هذا النحو، وبهذه الأساليب الذهنية، التي تصير كالقوالب، كان نظراً في المستعمل من تراكيبهم، لا فيما يقتضيه القياس. ولهذا قلنا إن المحصل لهذه القوالب في الذهن، إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم. وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور، فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين، وجاءوا به مفصلاً في النوعين. ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة، واستقلال الكلام في كل قطعة، وفي المنثور، يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً، وقد يقيدونه بالأسجاع. وقد يرسلونه، وكل واحد من هذه معروفة في لسان العرب. والمستعمل منها عندهم هو الذي يبني مؤلق الكلام عليه تأليفه، ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم، حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية، قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف، كما يحذو البناءُ على القالب، والنساج على المنوال. فلهذا كان من تأليف الكلام منفرداً عن نظر النحوي والبياني والعروضي. نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها، فإذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر، لطيفِ في هذه

القوالب، التي يسفونها أساليب. ولا يفيده إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً. وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو، فلنذكر بعده حداً أو رسماً للشعر يفهمنا حقيقته على صعوبة هذا الغرض. فإنا لم نقف عليه لأحدٍ من المتقدمين فيما رأيناه.وقول العروضيين في حده إنه الكلام الموزون المقفى، ليس بحدٍ لهذا الشعر الذي نحن بصدده، ولا رسم له. وصناعتهم إنما تنظر في الشعر من حيث اتفاق أبياته في عدد المتحركات والسواكن على التوالي، ومماثلة عروض أبيات الشعر لضربها. وذلك نظر في وزنٍ مجدد عن الألفاظ ودلالتها؛ فناسب أن يكون حّدا عندهم ونحن هنا ننظر في الشعر باعتبار ما فيه من الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة. فلا جرم إن حدهم ذلك لا يصلح له عندنا، فلا بد من تعريفٍ يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول: الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به. فقولنا الكلام البليغ جنس، وقولنا المبني على الاستعارة والأوصاف فصل له عما يخلو من هذه، فإنه في الغالب ليس بشعر، وقولنا المفصل بأجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل؛ وقولنا مستقل كل جزءٍ منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة، لأن الشعر لا تكون أبياته إلا كذلك، ولم يفصل به شيء. وقولنا الجاري على الأساليب المخصوصة به، فصل له عما لم يجرمنه على أساليب الشعر المعروفة؛ فإنه حينئذٍ لا يكون شعراً إنما هو كلائم منظوم، لان الشعر له أساليب تخصه، لا تكون للمنثور. وكذا أساليب المنثور لا تكون للشعر، فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب، فلا يسمى شعراً. وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية

يرون أن نظم المتنبي والمعرفي ليس هو من الشعر في شيء، لأنهما لم يجريا على أساليب العرب فيه، وقولنا في الحد الجاري على أساليب العرب فصل له عن شعر غير العرب من الأمم، عند من يرى أن الشعر يوجد للعرب ولغيرهم. ومن يرى أنه لا يوجد لغيرهم، فلا يحتاج إلى ذلك، ويقول مكانه الجاري على الأساليب المخصوصة. وإذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر، فلنرجع إلى الكلام في كيفية عمله فنقول: إعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً، أولها: الحفظ من جنسه أي من جنس شعر العرب، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها؛ ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب. وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين، مثل ابن أبي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وأبي نواس وحبيب والبحتري والرضي وأبي فراس. وأكثره شعر كتاب الأغاني، لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله، والمختار من شعر الجاهلية. ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر ردئ ، ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ. فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر، وإنما هو نظم ساقط. واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ. وربما يقال إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ، لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادة عن استعمالها بعينها. فإذا نسيها، وقد تكيفت النفس بها، انتقشت أسلوب فيها، كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورةً. ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار، وكذا من المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور. ثم مع هذا كله فشرطه أن يكون على جمام ونشاط، فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه.قالوا: وخير الأوقات لذلك أوقات البكر عند

الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر، وفي هواء الجمام. وربما قالوا إن من بواعثه العشق والانتشاء، ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة، وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله. قالوا: فإن استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه الى وقت آخر، ولا يكره نفسه عليه. وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه يضعها، ويبني الكلام عليها إلى آخره، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها. فربما تجيء نافرةً قلقةً، وإذا سمح الخاطر بالبيت، ولم يناسب الذي عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به؛ فإن كل بيت مستقل بنفسه، ولم تبق إلا المناسبة فليتخير فيها ما يشاء، وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد، ولا يضن به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة. فإن الإنسان مفتون بشعره، إذ هو نبات فكره واختراع قريحته، ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب. والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها، فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة.وقد حظر أئمة اللسان على المولد ارتكاب الضرورة، إذ هو في سعةٍ منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة. ويجتنب أيضاً المعقد من التراكيب جهده. وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم. وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم. وإنما المختار منه ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى منها. فإن كانت المعاني كثيرة كان حشواً، واستعمل الذهن بالغوص عليها، فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة. ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن. ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة، شاعر شرق الأندلس، لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، كما كانوا يعيبون شعر المتنبيء والمعري

بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر، والحاكم بذلك هو الذوق. وليجتنب الشاعر أيضاً الحوشي من الألفاظ والمقعر، وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة. وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضاً، فيصير مبتذلاً ويقرب من عدم الإفادة كقولهم: النار حارة والسماع فوقنا. وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة، إذ هما طرفان. ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب، ولا يحذق فيه إلا الفحول. وفي القليل، على العسر، لأن معانيها متداولة بين الجمهور، فتصير مبتذلة لذلك. وإذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده؛ فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف ويغرر بالترك والإهمال. وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق، وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد. ومن أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك. وهذه نبذةٌ كافيةٌ والله المعين. وقد نظم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية ما يجب فيها. ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق:

لعن الله صنعة الشعر مـــــــاذا من صنوف الجهال فيها لقينا
يؤثرون الغريب منه على مـــــا كان سهلاً للسامعين مبينـــــا
ويرون المحال معنى صحيحـــاً وخسيس الكلام شيئاً ثمينـــــاً
يجهلون الصواب منه ولا يـــــد رون للجهل أنهم يجهلونـــــا
فهم عند من سوانا يلامـــــــــو ن وفي الحق عندنا يعذرونـــا
إنما الشعر ما يناسب في النظم وإن كان في الصفات فنونـــا

فأتى بعضهُ يشاكلُ بعضـــــــــــــاً وأقامت له الصدور المتونـــا
كل معنى أتاك منه على مـــــــــــا تتمنى لو لم يكن أو يكونـــــا
فتناهى من البيان إلـــــــــــــى أن كاد حسنا يبين للناظرينـــــــا
فكان الألفاظ منه وجـــــــــــــوه والمعاني ركبن فيه عيونـــا
قائماً في المرام حسب الأمانـــــــي يتحلى بحسنه المنشدونـــــــا
فإذا ما مدحت بالشعر حـــــــــرّا رمت فيه مذاهب المشتهينـــا
فجعلت النسيب سهلاً قريبـــــــــاً وجعلت المديح صدقاً مبيـــنا
وتنكبت ما تهجن في السمـــــــــع وإن كان لفظه موزونـــــــا
وإذا ما قرضته بهجـــــــــــــاء عبت فيه مذاهب المرقبينـــــا
فجعلت التصريح منـــــــــــه دواء وجعلت التعريض داء دفينـــا
وإذا ما بكيت فيه على الغـــــــــا دين يوماً للبين والظاعنينـــــا
حلت دون الأسى وذللت ما كـــان من الدمع في العيون مصونـا
ثم إن كنت عاتباً جئت بالوعـــــد وعيداً وبالصعوبة لينـــــــــا
فتركت الذي عتبت عليـــــــــــه حذراً، آمناً، عزيزاً، مهينـــــا
وأصح القريض ما فات في النظم وإن كان واضحاً مستبينـــــــا
فإذا قيل أطمع الناس طـــــــــرا وإذا ريم اعجز المعجزينـــــا

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم وهو الناشي:

الشعر ما قومت ربع صـــــدوره وشددت بالتهذيب أس متونـه
ورأيت بالإطناب شعب صدوعه وفتحت بالإيجاز عور عيونه

وجمعت بين قريبه وبعيـــــــــده وجمعت بين مجمه ومعينــــــه
وعمدت منه سحد أمر يقتضــى شبها به فقرينه بقرينــــــــــه
وإذا مدحت به جواداً ماجـــــــداً وقضيته بالشكر حق ديونــــه
أصفيته بنفيسه ورصينـــــــــه وخصصته بخطيره وثمينــــه
فيكون جزلاً في مساق صنوفه ويكون سهلاً في اتفاق فنونــه
وإذا بكيت به الديار وأهلهـــــا أجريت للمحزون ماء شئونــه
وإذا أردت كناية عن ريبـــــة باينت بين ظهوره وبطونــــه
فجعلت سامعه يشوب شكوكــه بشنائه وظنونه بيقينــــــــــه
وإذا عتبت علم أخٍ في زلـــــةٍ أدمجت شدته له في لينـــــــه
فتركته مستأنساً بدماثـــــــــة مستأمناً لوعوته وحزونـــــه
وإذا نبذت إلى الذي علقتهـــــا إذ صارمتك بفاتنات شؤونــه
تيمتها بلطيفه ورقيقـــــــــه وشغفتها بخبيه وكمينـــــــه
وإذا اعتذرت لسقطة أسقطتها وأشكت بين مخيله ومبينـــــه
فيحول ذنبك عند من يعتـــده عتباً عليه مطالباً بيمينــــــه

الفصل السادس والخمسون

في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني

إعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل. فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر

إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله وجريه على لسانه، حتى تستقر له الملكة في لسان مضر، ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله، ويفرض نفسه، مثل وليدٍ نشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي، حتى يصير كأنه واحدً منهم في لسانهم. وذلك أنا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل شأن الملكات، والذي في اللسانِ والنطق إنما هو الألفاظ، وأما المعاني فهي في الضمائر. وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحدٍ وفي طوع كل فكرمنها ما يشاء ويرضى؛ فلا تحتاج إلى تكلف صناعةٍ في تأليفها. وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، والماء واحدُ في نفسه. وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء. كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه، باعتبار تطبيقه على المقاصد. والمعاني واحدة في نفسها؛ وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه، على مقتضى ملكة اللسان، إذا حاول العبارة عن مقصوده، ولم يحسن، بمثابة المقعد، الذي يروم النهوض ولا يستطيعه، لفقدان القدرة عليه. والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

الفصل السابع والخمسون

في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ، لمن يروم تعلم اللسان العربي؛ وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانىء أو الشريف الرضي؛ أو رسائلى ابن المقفع أو سهل ابن هارون أو إبن الزيات أو البديع أو الصابىء؛ تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة، ممن يحفظ أشعار المتأخرين مثل شعر ابن سهل أو ابن النبيه أو ترسل البيساني أو العماد الأصبهاني، لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك. يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق. وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع، تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام، ترتقي الملكة الحاصلة لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها. وذلك أن النفس، وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع، فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات.واختلافها إنما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفها من خارج. فبهذه يتم وجودها، وتخرج من القوة إلى الفعل صورتها. والملكات التي تحصل لها إنما تحصل على التدريج كما قدمناه. فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل، والعلمنة بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول، والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع، حتى تحصل له ملكة الرجوع إلى حسه الباطن وروحه، وينقلب ربانيا وكذا سائرها. وللنفس في كل واحدٍ منها لون تتكيف به

وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جود؛ أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها، فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام، ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كفهم قاصرين في البلاغة، وما ذلك إلا ما يسبق إلى محفوظهم، ويمتلىء به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة، لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة، فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم. وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلىء من حفظ النقي الحر من كلام العرب.أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال:ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبى الحسن، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم انسبها له وهو هذا:

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه، فقلت له ومن أين لك ذلك؟ قال من قوله:

ما الفرق؛ إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب، فقلت له: لله أبوك، إنه ابن النحوي.وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك، لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام العرب وأساليبهم في الترسل، وانتقائهم له الجيد من الكلام.ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب، وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت له: أجد استصعاباً علي في نظم الشعر متى رمته، مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام، من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوظي قليلاً وإنما أتيت، والله أعلم بحقيقة الحال، من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية. فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في

القراءات والرسم واستظهرتهما، وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول وجمل الخونجي في المنطق وبعض كتاب التسهيل وكثيراً من قوانين التعليم في المجالس؛ فامتلأ محفوظي من ذلك، وخدش وجه الملكة التي استدعيت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلى ساعة متعجباً ثم قال: لله أنت، وهل يقول هذا إلا مثلك ؟.ويظهر لك من هذا الفصل، وما تقرر فيه سر آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية، في منثورهم ومنظومهم. فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان في الرمة والأحوص وبشابى، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية وصدراً من الدولة العباسية، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة.والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم؛ فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والبصر بالبلاغة.ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا، وكان شيخ هذا الصناعة، أخذ بسبتة عن جماعة من مشيختها من

تلاميذ الشلوبين، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه؛ فسألته يوماً: ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين؛ ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه، فسكت طويلاً ثم قال لي: والله ما أدري ! فقلت له: أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك، ولعله السبب فيه. وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت معجباً، ثم قال لي: يا فقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب. وكان من بعدها يؤثر محلي ويصيخ في مجالس التعليم إلى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم. والله خلق الإنسان وعلمه البيان.

الفصل الثامن والخمسون

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع

وكيف جودة المصنوع أو قصوله

إعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه في إفادة المعنى.

وأما إذا كان مهملا فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند أهل البيان لأنهم يقولون هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال، هو فن البلاغة. وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقريت من لغة العرب وصارت كالقوانين. فالتراكيب بوضعها تفيد بالإسناد بين المسندين، بشروط وأحكام جل قوانين العربية. وأحوال هذه التراكيب من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وإضمارٍ وإظهارٍ، وتقييدٍ وإطلاقٍ وغيرها، يفيد الأحكام المكتنفة من خارجٍ بالإسنادِ، وبالمتخاطبين حال التخاطب بشروط وأحكام هي قوانين لفن، يسمونه علم المعاني من فنون

البلاغة. فتندرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم المعاني لأن إفادتها الإسناد جزء من إفادتها للأحوال المكتنفة بالإسناد. وما قصر من هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل في قوانين الإعراب أو قوانين المعاني كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال، ولحق بالمهمل الذي هو في عداد الموات.
ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات، لأن التركيب يدل بالوضع على معنى، ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه؛ فيكون فيها مجازاً: إما باستعارةٍ أو كنايةٍ كما هو مقرر في موضعه، ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل في الإفادة وأشد. لأن في جميعها ظفر بالمدلول من دليله. والظفر من أسباب اللذة كما علمت. ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط وأحكام كالقوانين صيروها صناعة، وسموها بالبيان. وهي شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال، لأنها راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها. وقوانين علم المعاني راجعة إلى احوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة. واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان كما علمت. فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزء البلاغة، وبهما كمال الإفادة، فهو مقصر عن البلاغة ويلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم وأجدر به أن لا يكون عربياً، لأن العربي هو الذي يطابق بإفادته مقتضى الحال. فالبلاغة على هذا هي أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته.
ثم إعلم أنهم إذا قالوا: "الكلام المطبوع " فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب، ليس المقصود منه النطق فقط. بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادةً تامةً، ويدل به عليه دلالةً وثيقةً. ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجية التي له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين، بعد كمال الإفادة وكأنها تعطيها رونق الفصاحة من تنميق الأسجاع، والموازنة بين حمل الكلام وتقسيمه

بالأقسام المختلفة الأحكام والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه، والمطابقة بين المتضادات، ليقع "التجانس بين الألفاظ والمعاني، فيحصل للكلام رونق ولذة في الأسماع وحلاوةٌ وجمالٌ كلها زائدةٌ على الإفادة.وهذه الصنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضع متعددة مثل: {والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى}[سورة 000الآية 000]، ومثل: {فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى}[سورة 000الآية 000]، إلى آخر التقسيم في الآية. وكذا: {فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا}[سورة 000الآية 000] إلى آخر الآية. وكذا: (هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً). وأمثاله كثير. وذلك بعد كمال الإفادة في أصل هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها. وكذا وقع في كلام الجاهلية منه، لكن عفواً من غير قصدٍ ولا تعمدٍ. ويقال إنه وقع في شعر زهير.

وأما الإسلاميون فوقع لهم عفواً وقصداً، وأتوا منه بالعجائب. وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس والبحتري ومسلم بن الوليد، فقد كانوا مولعين بالصنعة، ويأتون منها بالعجب. وقيل إن أول من ذهب إلى معاناتها بشار بن برد وابن هرمة، وكانا آخر من يستشهد بشعره في اللسان العربي. ثم اتبعهما عمرو بن كلثوم والعتابي ومنصور النميري ومسلم بن الوليد وأبو نواس. وجاء على آثارهم حبيب والبحتري. ثم ظهر ابن المعتز فختم على البديع والصناعة أجمع. ولنذكر مثالاً من المطبوع الخالي من الصناعة، مثل قول قيس بن ذريح:

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس في السر خاليا

وقول كثير:

وإني وتهيامي بعزة بعدمـــا تخليت عما بيننا وتخلـــــــــــت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلها تبوأ منها للمقيل اضمحلـــــــــت

فتأمل هذا المطبوع، الفقيد الصنعة، في إحكام تأليفه وثقافة تركيبه. فلو جاءت
فيه الصنعة من بعد هذا الأصل زادته حسناً.

وأما المصنوع فكثير من لدن بشار، ثم حبيب وطبقتهما، ثم ابن المعتز خاتم الصنعة الذي جرى المتأخرون بعدهم في ميدانهم، ونسجوا على منوالهم. وقد تعددت أصناف هذه الصنعة عند أهلها، واختلفت اصطلاحاتهم في ألقابها. وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة على أنها غير داخلة في الإفادة، وأنها هي تعطي التحسين والرونق. وأما المتقدمون من أهل البديع، فهي عندهم خارجة عن البلاغة. ولذلك يذكرونها في الفنون الأدبية التي لا موضوع لها. وهو رأي ابن رشيق في كتاب العمدة له، وأدباء الأندلس. وذكروا في استعمال هذه الصنعة شروطاً، منها أن تقع من غير تكلفٍ ولا اكتراثٍ في ما يقصد منها. وأما العفو فلا كلام فيه لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من غيب الاستهجان، لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فتخل بالإفادة من أصلها، وتذهب بالبلاغة رأساً ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات، وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون، ويعدون ذلك من القصور عن سواه. وسمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البلفيقي، وكان من أهل البصر في اللسان والقريحة في ذوقه يقول:إن من أشهى ما تقترحه علي نفسي أن أشاهد في بعض الأيام من ينتحل فنون هذا البديع في نظمه أو نثره، وقد عوقب بأشد العقوبة، ونودي عليه، يحذر بذلك تلميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة، فيكلفون بها، ويتناسون البلاغة. ثم من شروط استعمالها عندهم الإقلال منها وأن تكون في بيتين ثم ثلاثةٍ من القصيد، فتكفي في زينة الشعر ورونقه. والإكثار منها عيب، قاله ابن رشيق وغيره. وكان شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي منفق اللسان العربي بالأندلس لوقته يقول: هذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو للكاتب فيقبح أن يستكثر منها، لأنها من

محسنات الكلام ومزيناته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها، ويقبح بتعدادها. وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنثور في الجاهلية والإسلام. وكان أولاً مرسلاً معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه، شاهدة موازنته بفواصله، من غير التزام سجع ولا اكتراث بصنعة. حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه، فتعاطى الصنعة والتقفية وأتى بذلك بالعجب. وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات السلطانية. وإنما حمله عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة الخلافة المنفقة لسوق البلاغة. ثم انتشرت الصناعة بعده في منثور المتأخرين ونسي عهد الترسيل وتشابهت السلطانيات والأخوانيات والعربيات بالسوقيات. واختلط المرعي بالهمل. وهذا كله يدلك على أن الكلام المصنوع بالمعاناة والتكليف، قاصر عن الكلام المطبوع، لقلة الاكتراث فيه بأصل البلاغة، والحاكم في ذلك الذوق. الله خلقكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

الفصل التاسع والخمسون

في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر

إعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم. وكان رؤساء العرب متنافسين فيه، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحدٍ منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر، لتمييز حوكه. حتى انتهوا إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام، موضع حجهم، وبيت أبيهم إبراهيم؛ كما فعل امرؤ القيس بن حجر، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة، والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع. فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها، من كان له قدرة

على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر، على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات. ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام، بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً. ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة. ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي وأثاب عليه، فرجعوا حينئذٍ إلى ديدنهم منه. وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيما عاليةٌ وطبقةٌ مرتفعةٌ، وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به. ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة، وتقرب إليهم العرب بأشعارهم يمتدحونهم بها. ويجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم، ويحرصون على استهداء أشعارهم، يطلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان. والعرب يطالبون ولدهم بحفظها. ولم يزل الشأن هذا أيام بني أمية وصدراً من دولة بني العباس. وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للأصمعي، في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك، والرسوخ فيه والعناية بانتحاله، والتبصر بجيد الكلام ورديئه وكثرة محفوظه منه. ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم، من اجل العجمة وتقصيرها باللسان، وأنما تعلموه صناعة، ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط، لا سوى ذلك من الأغراض، كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هانىء ومن بعدهم إلى هلم جرًّا فصار غرض الشعر في الغالب إنما هو للكدية والإستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للأولين، كما ذكرناه آنفاً. وأنف منه لذلك أهل الهمم والمراتب من المتأخرين، وتغير الحال فيه وأ صبح تعاطيه هجنةً في الرئاسة ومذمةً؛ لأهل المناصب الكبيرة. والله مقلب الليل والنهار.

الفصل الستون

في أشعار العرب وأهل الأمصال لهذا العهد

إعلم أن الشعر لا يختص باللسان العربي فقط، بل هو موجود في كل لغةٍ، سواء
كانت عربيةً أو عجميةً. وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك، وذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق: أوميروس الشاعر وأثنى عليه. وكان في حمير أيضاً شعراء متقدمون. ولما فسد لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين إعرابها، وفسدت اللغات من بعد بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة؛ فكان لجيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الإعراب جملة، وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات. وكذلك الحضر أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الإعراب وأكثر الأوضاع والتصاريف، وخالفت أيضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد. واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق، فلأهل المشرق وأمصاره لغة غير لغة أهل المغرب وأمصاره، وتخالفهما أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره.ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان، لأن الموازين على نسبةٍ واحدةٍ في إعداد المتحركات والسواكن وتقابلها، موجودة في طباع البشر؛ فلم يهجر الشعر بفقدان لغةٍ واحدةٍ؛ وهي لغة مضر؛ الذين كانوا فحوله وفرسان ميدانه، حسبما اشتهر بين أهل الخليقة. بل كل جيلٍ وأهل كل لغةٍ من العرب المستعجمين والحضر اهل الامصار، يتعاطون منه ما يطاوعهم في انتحاله ورصف بنائه على مهيع كلامهم. فأما العرب، أهل هذا الجيل، المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض، على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة

على مذاهب الشعر وأعراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام. وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم. وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر، ثم بعد ذلك ينسبون. فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات، نسبةً إلى الأصمعي، راوية العرب في أشعارهم. وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي والحوراني والقيسى، وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطةً، لا على طريقة الصناعة الموسيقية. ثم يغنون به، ويسمون الغناء به باسم الحوراني ، نسبةً إلى حوران من أطراف العراق والشام، وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد.ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصباً على أربعة أجزاءٍ، يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة؛ شبيهاً بالمربع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين. ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة؛ وفيهم الفحول والمتأخرون عن ذلك، والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد، وخصوصاً علم اللسان؛ يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمج نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها. وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم. فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره؛ وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس. وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام، كما هو في لغتهم هذه. فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة: فإذا عرف اصطلاح في ملكةٍ واشتهر صحة الدلالة؛ وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة. ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم؛ فإن غالب كلماتهم موقوفة الاخر. ويتميز

عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب. فمن أشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحانٍ، ويذكر ظعنها مع قومها الى المغرب:

قال الشريف ابن هاشم علي ترى كبدي حرى شكت من زفيرها
يغز للأعلام أين ما رأت خاطري يرد غلام البدو يلوي عصيرها
وماذا شكاة الروح مما طرا لها عداة وزائع تلف الله خبيرها
يحس إن قطاع عامر ضميرها طوى وهند جافي ذكيرها
وعادت كما خوارة في يد غاسل #تجابذوها اثنين على مثل شوك الطلح عقدوا يسيرها على شوك والنزع بينهم لعه والبقايا جريرها
وباتت دموع العين ذارفات لشانها #تدارك شبيه دوار السواني يديرها منها النجم حذراً وزادها مرون يجي متراكباً من صبيرها
#يصب من القيعان من جانب الصفا عيون ولجاز البرق في غزيرها
#هاذا الغنى حتى تسابيت غزوة ناضت من بغداد حتى فقيرها
ونادى المنادي بالرحيل وشدوا وعرج عاريها على مستعيرها
وشد لها الأدهم دياب بن غانم على أيدين ماضي وليد مقرب ميرها

وقال لهم حسن بن سرحان غربوا وسوقوا النجوع إن كان أنا هو غفيرها
ويركض وبيده شهامه بالتسامح وباليمين لا يجدوا في مغيرها
غدرني زيان السيح من عابس وما كان يرضى زين حمير وميرها
غدرني وهو زعماً صديقي وصاحبي وأناليه ما من درقتي ما يديرها
ورجع يقول لهم بلال بن هاشم بحر البلاد العطشى ما بخيرها
حرام علي باب بغداد وأرضها داخل ولا عائد ركيزه من نعيرها
تصدف روحي عن بلاد ابن هاشم على الشمس أو حول الغظا من هجيرها

وباتت نيران العذارى قوادح يلوذ وبجرجان يشدوا أسيرها

ومن قولهم في رثاء أمير زناتة أبي سعدى اليفرني مقارعهم بافريقية وأرض الزاب ورثاؤهم له على جهة التهكم:

تقول فتاة الحي سعدى وهاضهـــا لها في ظعون الباكرين عويلُ
أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفـــة خذ النعت مني لا تكون هبيـلُ
تراه يعالي وادي ران وفوقـــــــه من الربط عيساوي بناه طويلُ
أراه يميل النور من شارع النقـــا به الواد شرقاً واليراع دليـــلُ
أيا لهف كبدي على الزناتي خليفـه قد كان لأعقاب الجياد سليـلُ
قتيل فتى الهيجا دياب بن غانـــم جراحه كأفواه المزاد تسيـــلُ
أيا جائزاً مات الزناتي خليفـــــه لا ترحل إلا أن يريد رحيـلُ
ألا واش رحلنا ثلاثين مـــــــرةً وعشراً وستا في النهار قليـلُ

ومن قولهم على لسان الشريف بن هاشم يذكر عتاباً وقع بينه وبين ماضي بن مقرب:

تبدى ماضي الجبار وقال لـــــــي أشكر ما نحنا عليك رضـــاشِ
أشكر أعد ما بقي ود بيننـــــــــا ورانا عريب عربا لابسين نماشِ
نحن غدينا نصدفو ما قضى لنـــا كما صادفت طعم الزباد طشـاشِ
أشكر أعد إلى يزيد ملامـــــــــه ليحدو ومن عمر بلاده عـــاشِ
إن كان نبت الشوك يلقح بأرضكم هنا العرب ما زدنا لهن صيـــاشِ

ومن قولهم في ذكر رحلتهم إلى الغرب وغلبهم زناتة عليه:

وأي جميل ضاع لي في الشريف بن هاشم وأي رجال ضاع قبلي جميلها

لقد كنت أنا وباه في زهو بيتنـــا عناني بحجة وغباني دليلهـــــــا
وعدت كأني شارب من مدامـــةٍ من الخمر فهو ما قدر من يميلهـا
أو مثل شمطامات مظنون كبدها غريباً وهي مدوخه عن قبيلهـــــا
أتاها زمان السوء حتى تدوحـت وهي بين عرباً غافلا عن نزيلهـا
كذلك أنا مما لحاني من الوجـــى شاكي بكبد باديتها زعيلهـــــــا
وأمرت قومي بالرحيل وبكـــروا وقووا وشداد الحوايا حميلهـــــا
قعدنا سبعة أيام محبوس نجعنـــا والبدو ما ترفع عمود يقيلهـــــا
نظل على حداب الثنايا نـــوازي يظل الجري فوق النضا ونصيلها

ومن شعر سلطان بن مطفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رياح وأهل الرياسة

فيهم، يقولها وهو معتقل بالمهدية في سجن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص أول ملوك أفريقية من الموحدين:

يقول وفي بوح الدجا بعد وهنـــة حرام على أجفان عيني منامهـــــا
يا من لقلب حالف الوجد والأســى وروح هيامي طال ما في سقامهـــا
حجازية بدوية عربيـــــــــــة عداوية ولها بعيد مرامهـــــــــــا
مولعة بالبدو لا تالف القـــــــرى سوى عانك الوعسا يؤتي خيامهـــا
غيات ومشتاها بها كل شتـــــــوة ممحونة بيها وبيها صحيح غرامهـــا
ومرباها عشب الأراضي من الحيا يواتي من الخور الخلايا جسامهـــا
تشوق شوق العين مما تداركـــــت عليها من السحب السواري عمامهـــا
وماذا بكت بالما وماذا تناحطـــت عيون غزار المزن عذبا حمامهـــا
كان عروس البكر لاحت تيابهـــا عليها ومن نور الأقاحي خزامهـــا
فلاة ودهنا واتساع ومنـــــــــة ومرعى سوى ما في مراعي نعامها
ومشروبها من مخض ألبان شولها غنيم ومن لحم الجوازي طعامها

تفانت عن الأبواب والموقف الـــــذي يشيب الفتى مما يقاسي زحامهـــــا
سقى الله ذا الوادي المشجر بالحيـــــا وبلا ويحيى ما بلي من رمامهـــــا
فكافأتها بالود مني وليتنـــــــــــــي ظفرت بأيام مضت في ركامهـــــا
ليالي أقواس الصبا في سواعـــــــــدي إذا قمت لم تحظ من أيدي سهامهــا
وفرسي عديد تحت سرجي مشاقـــــــة زمان الصبا سرجاً وبيدي لجامهــا
وكم من رداح أسهرتني ولـــــــم أرى من الخلق أبهى من نظام ابتسامهـا
وكم غيرها من كاعب مرجحنـــــــــة مطرزة الأجفان باهي وشامهــــــا
وصفقت من وجدي عليها طريحـــــة بكفي ولم ينسى جداها ذمامهـــــا
ونار بخطب الوجد توهج في الحشـــا وتوهج لا يطفا من الماء ضرامها
أيا من وعدتى الوعد هذا إلى متـــــى فني العمر في دار عماني ظلامها
ولكن رأيت الشمس تكسف ساعــــــةً ويغمى عليها ثم يبدأ غيامهـــــــا
بنود ورايات من السعد أقبـــــــــلت إلينا بعون الله يهفو علامهـــــــا
أرى في الفلا بالعين أظعان عزوتـــي ورمحي على كتفي وسيري أمامها
بجرعا عتاق النوق من فوق شامـــس أحب بلاد الله عندي حشامهـــــــا
إلى منزل بالجعفرية ّلّلـــــــوى مقيم بها ما لذ عند ى مقامهـــــــــــا
#ونلقى سراة من هلال بن عامـــــــر يزيل الصدا والغل عني سلامهــا
بهم تضرب الأمثال شرقاً ومغربـــاً إذا قاتلوا قوماً سريع انهزامهـــــا
عليهم ومن هو في حماهم تحيـــــة مدى الدهر ما غنى يفينا حمامهــا
فدع ذا ولا تأسف على سالف مضى فذي الدنيا ما دامت لأحد دوامهـــا

ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر، شيخ الكعوب، ومن
أولاد أبي الليل، يعاتب أقتالهم أولاد مهلهل ويجيب شاعرهم شبل بن مسكيانة بن مهلهل، عن أبيات فخر عليهم فيها بقومه:

يقول وذا قول المصاب الذي نشا قوارع قيعان يعاني صعابها

يريح بها حادي المصاب إذا سعـى فنونا من إنشاد القوافي عذابهـا
محيرة مختارة من نشادهـــــــــا تحدى بها تام الوشا ملتهابهـــا
مغربلة عن ناقد في غضونهـــــا محكمة القيعان دابي ودابهـــا
وهيض بتذكاري لها يا ذوي الندى قوارع من شبل وهذي جوابها
أشبل جنينا من حباك طرائفـــــا فراح يريح الموجعين الغنا بها

فخرت ولم تقصر ولا أنت عـــــادم سوى قلص في جمهورها ما أعابها وحامى حماها عاديا في حرابهـــــــــا
لقولك في أم المتين بني حمـــــــــزةٍ رصاص بني يحيى وغلاق دابهـــــــا

أما تعلم أنه قد قامها بعدما لقـــــــي وهل ريت من جا للوغى واصطلى بها واثنى طفاها
شهاباً من أهل الأمر يا شبل خارق # سواها جاسراً لا يهابهـــــــــــا
طفاها أضرمت بعد طفيه #وأضرمت بعد لفاس إلى بيت المنى يقتدى بهـــــــــا
الطفيتين ألن صحـت فصار وهي عن كبر الأسنة تهابها رجال بشي كعب
وبان لوالي الأمر في ذا انشحابهـــا الذي يتقي بهـــــــــا
كما كان هو يطلب على ذا تجنبـــت

ومنا في العتاب:

وليدا تعاتبتوا أنا أغنى لأننـــــي غنيت بمعلاق الثنا واغتصابها
علي ونا ندفع بها كل مبضـــــع بأسياف ننتاش العدا من رقابها
فإن كانت الأملاك بغت عرايس علينا بأطراف القنا اختضابهـا
ولا بعدها الإرهاف وذبل ورزق كالسنة الحناش انسلابهـــــــا
بني عمنا ما نرتضي الذل غلمـه تسير السبايا والمطايا ركابهـا
وهي عالماً بان المنايا تنيلهـــــا بلا شك والدنيا سريع انقلابها

ومنها في وصف الظعائن:

قطعنا قطوع البيد لا نختشي العدا فتوق بحوبات مخوف جنابها

ترى العين فيها قل لشبل عرائف وكل مهاةٍ محتظيها ربابهـــــــــــا
ترى أهلها غب الصباح أن يفلهـا بكل حلوب الجوف ما سدَّ بابهـــا
لها كل يوم في الأرامي قتائـــــل ورا الفاجر الممزوج عفو رضابها

ومن قولهم في الأمثال الحكمية:

وطلبك في الممنوع منك سفاهـة وصدك عمن صد عنك صواب
إذا رأيت أناساً يغلقوا عنك بابهم ظهور المطايا يفتح الله بـــــاب

ومن قول شبل يذكر انتساب الكعوب إلى برجم:

الشيب وشبان من أولاد برجم جميع البرايا تشتكي من ضهادها

ومن قول خالدٍ يعاتب إخوانه في موالاة شيخ الموحدين أبي محمدٍ بن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس على سلطانها مكفولة أبي إسحق ابن السلطان أبي يحيى وذلك فيما قرب من عصرنا:

يقول بلا جهل لتى الجود خالـــــــــدُ مقالة قوال وقال صـــــــــــوابُ
مقالة حبر ذات ذهن ولم يكـــــــــن هريجاً ولا فيما يقول ذهـــــــــابُ
تهجست معنا نابها لا لحاجـــــــــةٍ ولا هرج ينقاد منه معـــــــــابُ
وكنت بها كبدي وهي نعم صابـــــــة حزينة فكبر والحزين يصـــــــابُ
تفوهت بادي شرحها عن مـــــآرب جرت من رجال في القبيل قـرابُ
بنى كعب أدنى الأقربين لدمنـــــــتا بني عم منهم شايب وشبـــــــابُ
جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم # مصافاة ود واتساع جنـــــــابُ
وبعضهم ملنا له عن خصيمـــــــه كما يعلموا قولي يقينه صـــــوابُ
وبعضهمو مرهوب من بعض ملكنا # جزاعاً وفي جو الضمير كتـــابُ
وبعضهمو جانا جريحاً تسمحت #وبعضهمو نظار خواطر منها للنزيل وهـــــــابُ
فينا بســـــــــوَّةٍ نقهناه حتى ما عنا به ســـــــاب
رجع ينتهي مما سفهنا قبيحـــــــه مراراً وفي بعض المرار يهـــــاب
وبعضهمو شاكي من أوغاد قـــادر غلق عنه في أحكام السقائف بـــاب
فصمناه عنه وأقتضي منه مـــورد على كره مولى البالقي وديـــــاب
ونحن على دافى المدى نطلب العلا # وحزنا لهم ما حططنا للفجور نقـــــاب
حمى وطن بترشيش بعدمـــا نفقنا عليها سبقاً ورقـــــــــاب
ومهد من الأملاك ما كانا خارجـــاً على أحكام والي أمرها له نـــــاب
بردع قروم من قروم قبيلنـــــــا بني كعب لاواها الغريم وطـــــاب
جرينا بهم عن كل تأليف في العـــدا وقمنا لهم عن كل قيد منـــــــاب
إلى أن عاد من لا كان فيهم بهمـــة ربيها وخيراته عليه نصـــــاب
وركبوا السبايا المثمنات من أهلها #وساقوا ولبسوا من أنواع الحرير ثيـــاب

المطايا بالشرا لا نسوا لـــــه جماهير ما يغلو بها بحـــــــــــلاب

وكسبوا من أصناف السعايا ذخائر # وعادوا ضخام لحزات الزمان تصاب
نظير البر مكيين قبـــــــل ذا وإلا هلالا في زمان دياب
وكانوا لا درعاً لكل مهمـــــــــــة إلى أن بان من نار العدو شهاب
وخلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقـوا ملامه ولا دار الكرام عتاب
كسوا الحي جلباب البهيم لستـــــــره وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب
كذلك منهم حانس ما دار النبـــــــــا ذهل حلمي أن كان عقله غاب
يظن ظنوناً ليس نحن بأهلهـــــــــا تمنى يكن له في السماح شعاب
خطا هو ومن واتاهُ في سوّظنه #فواعزوتى إن بالإثبات من ظن القبائح عاب
الفتى بو محمـــــــــــد وهوب لآلاف بغير حساب
ويرحت الأوغاد منه ويحسبـــــــــوا بروحه ما يحيى بروح سحاب
جروا يطلبوا تحت السحاب شرائع # وهو لو لقوا كل ما يستاملوه سراب
عطى ما كان للرأى عـــارف ولا كان في قلة عطاه صواب
وإن نحن ما نستأملوا عنه راحـــــــة وأنه بإسهام التلاف مصاب
وإن ما وطا ترشيش يضياق وسعها # وأنه منها عليه ويمشي بالفزوع لزاب
عن قريب مفاصـــــــــــل خنوج عناز هوالها وقباب
وعن فاتنات الطرف بيض كوانـــــج ربوا خلف أستار وخلف حجاب
يتيه إذا تاهوا ويصبوا إذا صبوا #يضلوه عن عدم بحسن قوانين وصوت رباب
اليمين وربمـــــــــــا يطارح حتى ما كأنه شاب
بهم حازله زمه وطوع أوامـــــــــــر ولذة مأكول وطيب شراب
حرام على ابن تافركين ما مضـــــــى من الود إلا ما بدل بحراب
وإن كان له عقل رجيح وفطنـــــــــة يلجج في اليم الغريق غراب
وأما البدالا بّدها من فياعـــــــــــل كبار إلى أن تبقى الرجال كباب
ويحمى بها سوق علينا سلاعـــــــــه ويحمار موصوف القنا وجعاب
ويمسي كلام طالب ريح ملكنـــــــــا ندوما ولا يمسي صحيح بناب
أيا واكلين الخبز تبغوا أدامـــــــــــه غلطتوا أدمتوا في السموم لباب

ومن شعر علي بن عمر بن إبراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة يعاتب بني عمه المتطاولين إلى رياسته:

محبرة كالدر في يد صانـــــــــع إذا كان في سلك الحرير نظام
أباحها منها فيه أسباب ما مضى وشاء تبارك والضعون تســـام
غدا منه لأم الحي حيين وأنشطت عصاها ولا صبنا عليه حكـــام
ولكن ضميري يوم بأن بهم إلينـــا تبرم على شوك القتاد بـــــــرام
وإلا كأبراص التهامي قـــــوادح وبين عواج الكانفات ضـــــرام
وإلا لكان القلب في يد قابـــــض أتاهم بمنشار القطيع غشـــــام
لما قلت سما من شقا البين زارني إذا كان ينادي بالفراق وخـــام

إلا يا ربوع كان بالأمس عامــــــــــــــــر بيحيى وحله والقطين لمــــــــــام

وغيد تداني للخطا في ملاعــــــــــــــــبٍ دجى الليل فيهم ساهرٌ ونيــــــــام

ونعم يشوف الناظرين التحامهــــــــــــــا لنا ما بدا من مهرق وكظـــــــــام

وعرود باسمها ليدعو لسربهـــــــــــــــا وإطلاق من شرب المها ونعـــــام

واليوم ما فيها سوى البوم حولهـــــــــــا ينوح على أطلال لها وخيـــــــــام

وقفنا بها طورا طويلا نسألهـــــــــــــــا بعين سخينا والدموع سجـــــــــــام

ولا صح لي منها سوى وحش خاطري وسقمي من أسباب أن عرفت أوهام

ومن بعد ذا تدى لمنصور بوعلـــــــــــي سلام ومن بعد السلام ســــــــــلام

وقولوا له يا بو الوفا كلح رأيكـــــــــــــم دخلتم بحور غامقات دهـــــــــــام

زواخر ما تنقاس بالعود إنمـــــــــــــــــا لها سيلات على الفضا وأكــــــام

ولا قستمو فيها قياسا يدلكـــــــــــــــــــم وليس البحور الطاميات تعـــــــام

وعانوا على هلكاتكم في ورودهـــــــــا من الناس عدمان العقول لئـــــــام

أيا عزوة ركبوا الضلالة ولا لهـــــــــم قرار ولا دنيا لهـــــــــــــن دوام

إلا عناهمو لوترى كيف زايهـــــــــــم مثل سراب فلاه ما لهن تمـــــام

خلو القنا يبغون في مرقب العـــــــــــــلا مواضع ما هيا لهم بمقـــــــــــام

وحق النبي والبيت وأركانه العلـــــــــــــى ومن زارها في كل دهر وعـــــام

لبر الليالي فيه أن طالت الحيــــــــــــــــا يذوقون من خمط الكساع مـــدام

ولا برها تبقى البوادي عواكـــــــــــــف بكل رديني مطرب وحســـــــام

وكل مسافة كالسد إياه عابـــــــــــــــــــر عليها من أولاد الكرام غـــــــلام

وكل كميت يكتعص عض نابــــــــــــــه يظل يصارع في العنان لجـــــام

وتحمل بنا الأرض العقيمة مــــــــــــدة وتولدنا من كل ضيق كظـــــــام

بالأبطال والقود الهجان وبالقنـــــــــــــا لها وقت وجنات البدور زحـــــام

أتجحدني وأنا عقيد نقودهـــــــــــــــــا وفي سن رمحي للحروب عـــلام

ولحن كأضراس الموافي بنجعكـــــــــم حتى يقاضوا من ديون غـــــــرام

متى كان يوم القحط يا مير أبو علـــــي يلقى سعايا صايرين قـــــــــــدام

كذلك بوحمو إلى اليسر أبعمـــــــــــــه وخفى الجياد العاليات تســـــــــــام

وخل رجالاً لا يرى الضيم جارهـــــــم ولا يجمعوا بدهى العدو زفـــــــام

ألا يقيموها وعقد بؤسهــــــــــــــــــــم وهم عذر عنه دائمـــــــــا ودوام

وكم ثار طعنها على البدو سابــــــــــــق ما بين صحاصيح وما بين حســـام

فتى ثار قطار الصوى يوما علـــــــــــى لنا أرض ترك الظاعنين زمـــــام

وكما ذا يجيبوا أثرها من غنيمـــــــــــــة حليف الثنا قشاع كل غيـــــــــــام

وإن جاء خافوه الملوك ووسعـــــــــــوا غدا طبعه يجدي عليه قيـــــــــــام

عليكم سلام الله من لسن فاهـــــــــــــــم ما غنت الورقا وناح حمــــــــــــام

ومن شعر عرب نمر بنواحي حوران لامرأة قتل زوجها فبعثت إلى أحلافه من قيس تغريهم بطلب ثأره لقول:

تقول فتاة الحي أم سلامــــــــــــــــة بعين أراع الله من لا رثى لهـــــا

تبيت بطول الفيل ما تألف الكـــــرى موجعة كان الشقافي مجالهمــــــا

على ما جرى في دارها وبو عيالها بلحظة عين البين غير حالهـــــــا
فقدنا شهاب الدين يا قيس كلكـــــــم ونمتوا عن أخذ الثأر ماذا مقالهـا
أنا قلت إذا ورد الكتاب يسرنـــــــي ويبرد من نيران قلبي ذبالهـــــــا
أيا حين تسريح الذوائب واللحـــــى وبيض العذارى ما حميتو جمالها

وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح، وينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً، يكثرون منها، ومن أعاريضها المختلفة. ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيتٍ على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس جملة، الخاصة والكافة، لسهولة تناوله، وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم ابن معافر القبريري من شعراء الأمير عبد الله بى محمد المرواني. وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه، صاحب كتاب العقد، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشحاتهما. فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية. وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهير يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بدر تــم. شمس ضحا. غصن نقا.مسكٌ شم

ما أتــم. ما أوضحـــا. ما أورقــا. ما أنـــم

#لا جرم. من لمحـــــا. قد عشقــا. قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف.

وذكرغير واحدٍ من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أنَّ

هذاالشلأنجاء مصلياً خلفه منهم ابن رافع، راس شعراء المأمون ابن ذي النون، صاحب طليطلة. قالوا وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول؛

العود قد ترنم بأبدع تلحين وسقت المذانب رياض البساتين

وفي انتهائه حيث يعول:

تخطر ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتائب يحيي بن ذي النون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين فظهرت لهم البدائع، وسابق فرسان حلبتهم الأعمى الطليطلي، ثم يحيى بن بقي، وللطليطلى من الموشحات المهذبة قوله:

كيف السبيل إلـــــى صبري وفي المعالم أشجان

والراكب وسط الفلا بالخرد النواعم قد بـــــــان

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشان بالأندلس يذكرون أن

جماعةً من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بأشبيلية، وكان كل واحدٍ منهم اصطنع موشحةً وتأنق فيها فتقدم الأعمى الطليطلي للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جمان سافر عن دُر ضاق عنه الزمان وحواه صدري

صرف ابن بقي موشحته وتبعه الباقون. وذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع ابن زهر يقول: ما حسدت قط وشاحاً على قول إلا ابن بقي حين وقع له:

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحق أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما من الموشحين المطبوعين أبو بكر الأبيض. وكان في عصرهما أيضاً الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة؛ فالقى على بعض قيناته موشحته التي أولها:

جرر الذيل أيما جــر وصلِ الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك، فلما ختمها بقوله:

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكـــــــر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت، صاح: واطرباه وشق ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت وما ختمت، وحلف بالأيمان المغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب. فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه. وذكر أبو الخطاب بن زهر أنه جرى في مجلس أبي بكر بين زهر. ذكر أبي بكر الأبيض الوشاح المتقدم الذكر؛ فغض منه بعض الحاضرين فقال كيف تغض ممن يقول:

ما لذ لي شرب راح،على رياض الأقاحٍ لولا هضيم الوشاح،إذا أسا في الصباح

أو في الأصيل،أضحى يقـــــــــــــول: ما للشمول،لطمت خـــــــــــــــــــدى؟

وللشمال هبت فمـــــــــــــــــــــــــــال غصن اعتدال ضمه بــــــــــــــردي

#مما أباد القلوبا،يمشي لنا مستريبـــــــــا يا لحظه رد ذنوباً ويا لماه الشنيبـــــــــا

برد غليل،صب عليـــــــــــــــــــــــل لا يستحيل،فيه عن العهــــــــــــــــــــد

ولا يزالُ،في كل حــــــــــــــــــــــــال يرجو الوصال،وهو في الصــــــــــــد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف. قال الحسن بن دويريدة: رأيت حاتم بن سعيد على هذا الافتتاح:

شمس قاربـــــت بـــــــــــــــــدراً راح ونديـــــــــــــــــــــــــــــــــــم

وابن هردوس الذي له:

يا ليلة الوصل والسعـــــــــــــــــود بالله عــــــــــــــــــــــــــــــــودي

وابن مؤهل الذي له:

ما العيد في حلة وطاق وشم طيـــب وإنما العيد في التلاقي مع الحبيـــــب

وأبو إسحق الرديني، قال ابن سعيد: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول إنه دخل على ابن زهر، وقد أسن، وعليه زي البادية، إذ كان يسكن بحصن أستبه، فلم يعرفه، فجلس حيث انتهى به المجلس. وجرت المحاضرة فانشد لنفسه موشحةً وقع فيها:

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح

ومعصم النهر في حـــــــلل خضر من البطــاح

فتحرك ابن زفر وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر! قال: ومن تكون؟ فعرفه،فقال: ارتفع فوالله ما عرفتك. قال ابن سعيدٍ: وسابق الحلبة التي أدركت هؤلاء أبو بكر بن زهر، وقد شرقت موشحاته وغربت. قال: وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيل لابنٍ زهيرٍ، لو قيل لك ما أباع وأرفع ما وقع لك في التوشيح ما كنت تقول؛ قال، كنت أقول:

ما للموله؛من سكره لا يفيق. يا له سكران من غير خمر. ما للكئيب المشوق.

يندب الأوطان؟.

هل تستعاد. أيامنـــــــــــــــا بالخليج. وليالينـــــــــــــــا؟

أو يستفاد. من النسيــــــــــم الأريج. مسك دارينـــــــــــــا

أو هل يكاد. حسن المكان البهيج. أن يحيينـــــــــــــا؟

روض أظله. دوح عليه أنيق. مورق الأفنان. والماء يجرى .وعائم وغريق.

من جنى الريحان.

واشتهر بعده ابن حيون الذي له من الزجل المشهور قوله:

يفوق سهمه كل حيـــــــــنٍ بما شئت من يدٍ وعيــــــــــن

وينشد في القصيد:

خلقت مليح علمت رامـــــي فليس تخل ساعٍ من قتـــــال

وتعمل بذي العينين متاعـــي ما تعمل يديَّ بالنبـــــــــال

واشتهر معهما يومئذٍ بغرناطة المهر بن الفرس، قال ابن سعيدٍ، ولما سمع ابن زٍهير قوله:

لله ما كان من يوم بهيــجٍ بنهر حمص على تلك المروج ثم # انعطفنا وعلى فم الخليــجٍ نفض في حانه مسك الختام

عن عسجدٍ زانهُ صافي المدامِ ورداء الأصيل ضمه كف الظلام

قال ابن زهرٍ: أين كنا نحن عن هذا الرداء وكان معه في بلده مطرفٌ. أخبر ابن
سعيدٍ عن والده أن مطرفاً هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكرمه، فقال لا تفعل! فقال ابن الفرس: كيف لا أقوم لمن يقول:

قلوب تصاب بألحاظ تصيب فقل كيف تبقى بلا وجـــــــــــد

وبعد هذا ابن حزمون بمرسية. ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجي دخل عليه
في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه، فقال له ابن حزمون :لا يكون الموشح بموشح حتى يكون عارياً عن التكلف، قال على مثل ماذا؟ قال على مثل قولي:

يا هاجري هل إلى الوصال منك سبيلُ
أو هل ترى عن هواك سالي قلب العليلُ

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة. قال ابن سعيدٍ كان والدي يعجب بقوله:

إن سيل الصباح في الشرق عاد بحراً في أجمع الأفق
فتداعت نوادب الورق
أتراها خافت من الغرق فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل، قال ابن سعيدٍ عن والده، سمعت سهل ابن مالك يقول له: يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك: واحسرتا لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى
وأفردت بالرغم لا بالرضى وبت على جمرات الغضى
أعانق بالفكر تلك الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته غير ما مرة، فما سمعته يقول له لله درك، إلا في قوله:

قسماً بالهوى لذي حجر ما لليل المشوق من فجر

جمد الصبح ليس يطرد ما لليلي فيما أظن غد اصح ياليل إنك الأبد

أو قفصت قوادم النسـر فنجوم السماء لا تسري

ومن محاسن موشحات ابن الصابوني قوله:

ما حال صب ذي ضنى واكتئاب أمرضه يا ويلتاه الطبيـــب

عامله محبوبه باجتنـــــــــاب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

جفا جفوني النوم لكننـــــــي لم أبكه إلا لفقد الخيـــــال

وذا الوصال اليوم قد غرنـــــي منه كما شاء وشاء الوصال

فلست باللائم من صدنـــــــي بصورة الحق ولا بالمحـــال

واشتهر ببر أهل العدوة ابن خلف الجزايري صاحب الموشحة المشهورة:

يد الأصباح قدحت زنـــــــاد الأنوار في مجامر الزهـــــر

وابن خرز البجائي وله من موشحة:

ثغر الزمان موافـــــــــــق حباك منه بابتســـــــــام

ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل، شاعر أشبيلية وسبتة من بعدها؛ فمنها قوله:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنسِ

فهو في نار وخفق مثل مـــــا لعبت ريح الصبا بالقبـسِ

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب، شاعر الأندلس والمغرب لعصره، وقد مر ذكره فقال:

جادك الغيث إذا الغيث همـــــــــى يا زمان الوصل بالاندلـــــــــــــــس
لم يكن وصلك إلا حًلمـــــــــــــا في الكرى أو خلسة المختلـــــــــــــس
إذ يقود الدهر أشتات المنــــــــى تنقل الخطو على ما ترســـــــــــــــم
زمراً بين   فرادى وثنـــــــــــا مثل ما يدعو الحجيج الموســـــــــــم
والحيا قد جلل الروض سنــــــي فثغور الأزهار فيه تبســــــــــــــــم
وروى النعمان عن ماء السمـــــا كيف يروي مالك عن أنـــــــــــــس؟
فكساه الحسن ثوباً معلمــــــــــا يزدهي منه بأبهى ملبـــــــــــــــس
في ليالٍ كتمت سر الهـــــــــوى بالدجى لولا شموس القـــــــــــــدر
مال نجم الكأس فيها وهـــــوى مستقيم السير سعد الأثـــــــــــــــر
وطر ما فيه من عيب سوى   أنه مر كلمح البصــــــــــــــــــــــر
حين لذ النوم شيئاً أو كمـــــــا هجم الصبح هجوم الحـــــــــــــرس
غارت الشهب بنا، أو ربمــــــا أثرت فينا عيون النرجـــــــــــــــس
أي شيء لا مرىء قد خلصــــا فيكون الروض قد كنن فيـــــــــــــه
تنهب الأزهار فيه الفرصـــــــا أمنت من مكره ما تتقيــــــــــــــــه
فإذا الماء تناجى والحصـــــــى وخلا كل خليل بأخيــــــــــــــــــه
تبصر الورد غيوراً برمـــــــــا يكتسي من غيظه ما يكتســــــــــي
وترى الآس لبيباً فهمــــــــــــا يسرق السمع بأذني فـــــــــــــــرس
يا أهيل الحي من وادي الغضـا وبقلبي مسكن أنتم بـــــــــــــــــه
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا لا أبالي شرقه من غربــــــــــــه

فأعيدوا عهد أنسٍ قد مضـــــــــــــى   تعتقوا عبدكم من كربـــــــــــه
واتقوا الله وأحيوا مغرمـــــــــــــــاً   يتلاشى نفساً في نفـــــــــــــس
حبس القلب عليكم كرمـــــــــــــــا   أفترضون خراب الحبـــــــــــس
وبقلبي منكم مقتـــــــــــــــــــــرب   بأحاديث المنى وهو بعيـــــــــــد
قمر أطلع منه المغـــــــــــــــــرب   شقوة المضنى به، وهو سعيـــــد
قد تساوى محسن أو مذنـــــــــــب   في هواه، بين وعدٍ ووعيـــــــــد
ساحر المقلة معسول اللمـــــــــــى   جال في النفس مجال النفـــــس
سدد السهم وسمى ورمـــــــــــــى   ففؤادي نهبة المفتـــــــــــــــرس
إن يكن جار وخاب الأمـــــــــــل   وفؤاد الصب بالشوق يـــــذوب
فهو للنفس حبيـــــــــــــــــب أول   ليس في الحب لمحبوب ذنـــوب
أمره معتمل ممتثـــــــــــــــــــل   في ضلوع، قد براها، وقلـــوب
حكم اللحظ بها فاحتكمـــــــــــا   لم يراقب في ضعاف الأنفـــس
ينصف المظلوم ممن ظلمـــــــــــا   ويجازي البر منها والمســـــــي
ما لقلبي كلما هبت صبـــــــــــــا   عاده عيد من الشوق جديـــــــــد
كان في اللوح له مكتتبـــــــــــــا   قوله إن عذابي لشديـــــــــــــــد
جلب الهم له والوصبـــــــــــــــا   فهو للأشجان في جهدٍ جهيـــــد
#لا عج من أضلعي قد أضرمـــــا   فهي نار في هشيم اليبـــــــــــس
لم تدع في مهجتي إلا ذمـــــــــا   كبقاء الصبح بعد الغلـــــــــــس

سلمي يا نفس في حكم القضـــــــــا واعبري الوقت برجعي ومتاب
وفى عي ذكر زمانٍ قد مضـــــــــى بين عتبى قد تقضت وعتـــاب
واصرفي القول إلى المولى الرضى ملهم التوفيق في أم الكتـــــــاب
الكريم المنتهى والمنتمـــــــــــــى أسد السرح وبدر المجلـــــــس
ينزل النصر علنه مثلمـــــــــــا ينزل الوحي بروح القـــــــدس

وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات. ومن أحسن ما وقع
لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك التي اشتهرت شرقاً وغرباً وأولها:

حبيبي ارفع حجاب النـــــــور عن العـــــــــــــــذار
تنظر المسك على كافـــــــور في جلنـــــــــــــار
كفلي يا سحب تيجان الربـــى بالحلى واجعلـــــــــــي

سوارها منعطف الجدول

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور، لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً. واستحدثوا فناً سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة.

وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس؛ لكن لم يظهر حلاها، ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه. وكان لعهد الملثمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق. قال ابن سعيدٍ: ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب. قال: وسمعت أبا الحسن بن جحدر الأشبيلي، إمام الزجالين في عصرنا يقول:

ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه، فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر متدرجة فقال:

وعريش قد قام على دكـــان بحـــــــــــــال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبـــــــــان من غلظ ســـــــــاق
وفتح فمه بحال إنســـــــان بيه الفـــــــــــراق
وانطلق من ثم على الصفاح وألقى الصيـــــــاح

وكان ابن قزمان، مع أنه قرطبي الدار، كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية ونيتاب نهرها،
فاتفق أن اجتمع ذات يوم جماعة من أعلام هذا الشأن. وقد ركبوا في النهر للنزهة ومعهم غلام جميل الصورة من سروات أهل البلد وبيوتهم. وكانوا مجتمعين في زورق للصيد؛ فنظموا في وصف الحال، وبدأ منهم عيسى البليدي فقال:

يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتـو وقد ضمني عشقو لشهماتـــــو
تراه قد حصل مسكين محلاتـو يغلق وكذاك أمر عظيم صاباتو
توحش الجفون الكحل إن غابو وذيك الجفون الكحل أبلاتـــــو

ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الأشبيلي:

نشب والهوى من لج فيه ينشب ترى ايش دعاه يشقى ويتعذب
مع العشق قام في بالوان يلعـب وخلق كثير من ذا اللعب ماتوا

ثم قال أبو الحسن المقري الداني:

نهار مليح يعجبن أوصافـــــــــو شراب وملاح من حولي قد طافوا
والمقلين يقول من فوق صفصافو والبوري أخرى فقلاتـــــــــــــو

ثم قال أبو بكر بن مرتين:

الحق تريد حديث بقالي عـــــــاد في الواد النزيه والبوري والصياد
لسنا حيتان ذيك الذي يصطـــــاد قلوب الورى هي في شبيكاتـــــــو

ثم قال أبو بكر بن قزمان:

إذا شفر كمامو يرميهـــــــــــــا ترى البوري يرشق لذاك الجيها
وليس مرادو أن يقع فيهـــــــــا إلا أن يقبل بدياتـــــــــــــــــو

وكان في عصرهم بشرق الأندلس فحلف الأسود، وله محاسن من الزجل منها قوله:

قد كنت منشوب واختشيت النشب وردني ذا العشق لأمر صعب
حتى تنظر الخد الشريق البهـــــي تنتهي في الخمر إلما تنتهـــــي
يا طالب الكيميا في عيني هـــــي تنظر بها الفضة وترجع ذهـب

وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس، وقعت له العجائب في هذه الطريقة، فمن قوله في زجله المشهور:

ورذاذ دق ينـــــزل وشعاع الشمس يضـــــرب
فترى الواحد يفضض وترى الآخر يذهـــــــــــب
والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب
وبريد تجي إلينـــــــا ثم تستحي وتهـــــــــــرب

ومن محاسن أزجاله قوله:

لاح الضيا والنجوم حيارى فقم بنا ننزع الكســـــــــــــل
شربت ممزوج من قراعـا أحلى هي عندي من العسل
يا من يلمني كما تقـــــــلد قلدك الله بما تقـــــــــــول

يقول بان الذنوب تولـــــــــــــد وأنه يفسد العقـــــــــــــــــــــول
لأرض الحجازموريكن لك أرشد إيش ما ساقك معي في ذا الفضول
مر أنت للحج والزيـــــــــــــارا ودعني في الشرب منهمـــــــــــــل
من ليس لو قدره ولا استطـــــاع النية أبلغ من العمـــــــــــــــــــل

وظهر بعد هؤلاء بإشبيلية ابن جحدرالدي فضل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل الذي أوله هذا:

من عاند التوحيد بالسيف يمحــق أنا بري ممن يعاند الحـــــــــــــق

قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه المعمع صاحب الزجل المشهور الذي أوله:

يا ليتني إن رأيت حبيبـــــــــــي أفتل أذنو بالرسيلا
ليش أخذ عنق الغزيـــــــــــل وسرق فم الحجيلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل ابن مالك إمام الأدب، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع، فمن محاسنه في هذه الطريقة:

امزج الأكواس واملالي تجدد ما خلق المال إلا أن يبدد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششتري منهم:

بين طلوع وبين نـــــــــــزول اختلطت الغـــزول
ومضى من لم يكـــــــــــــن وبقي من لم يزول

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى:

البعد عنك يا بني أعظم مصايبي وحين حصل لي قربك سببت قاربي

وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وكان إماماً في هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغليس في قوله:

لاح الضياء والنجوم حيارى بقوله:

حل المجون يا أهل الشطـــــارا مذ حلت الشمس في الحمـــــــل
تجددوا كل يوم خلاعـــــــــا لا تجعلوا بينها ثمـــــــــــل
إليها يتخلعوا في شنبـــــــــل على خضورة ذاك النبـــــــات
وحل بغداد واجتاز النيـــــــل أحسن عندي من ذيك الجهـــات
وطاقتها أصلح من أربعين مـل إن مرت الريح عليه وجـــاءت
لم تلتق الغبار أمـــــــــارا ولا بمقدار ما يكتحـــــــــل
وكيف ولاش فيه موضع رقاعا إلا ونسرح فيه النحـــــــــل

وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العامة بالأندلس من الشعر، وفيها نظمهم حتى أنهم لينظمون بها في سائر البحور الخمسة عشر، لكن بلغتهم العامية ويسفون الشعر الزجلي مثل قول شاعرهم:

دهر لي نعشق جفونك وسنيـــــــن وأنت لا شفقة ولا قلب يليـــن
حتى ترى قلبي من أجلك كيف رجع صنعة السكة بين الحداديـــــن
الدموع ترشرش والنار تلتهـــــب والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله النصارى للغـــــــــزو وأنت تغزو قلوب العاشقيـــن

وكان من المجيدين لهذه الطريقة لأول هذه المائة الأديب أبو عبد الله اللوشي وله فيها قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الأحمر:

طل الصباح قم يا نديمي نشربو ونضحكو من بعد ما نطربو
سبيكة الفجر أحكت شفـــــــق في ميلق الليل فقم قلبـــــو

ترى عيارها خالص أبيض نقـــي فضة هو لكن الشفق ذهبو
فتنتفق سكتوا عند البشـــــــــــر نور الجفون من نورها يكسبو
فهو النهار يا صاحبي للمعـــاش عيش الغني فيه بالله ما أطيبو
والليل أيضاً للقبل والعنـــــــاق على سرير الوصل يتقلبو
جاد الزمان من بعد ما كان بخيل ولش ليفلت من يديه عقربو
كما جرع مرو فما قد مضـــى يشرب بيننو ويأكل طيبو
قال الرقيب يا أدباً إيـــــــش ذا في الشرب والعشق ترى ننجبو
وتعجبوا عذالي من ذا الخبـــــر فقلت يا قوم من ذا تتعجبوا
نعشق مليح إلا رقيق الطبـــاع علاش تكفروا بالله أو تكتبوا
ليش يربح الحسن إلا شاعر أديب يفض بكرو ويدع ثيبو
أما الكاس فحرام نعم هو حـــرام على الذي ما يدري كيف يشربو
ويد الذي يحسن حسابه ولـــــــم يقدر يحسن ألفاظ أن يجلبوا
وأهل العقل والفكر والمجـــون يغفر ذنوبهم لهذا إن أذنبوا
ظبي بهي فيها يطفي الجمـــــــر وقلبي في جمر الغضى يلهبو
غزال بهي ينظر قلوب الأســود وبالوهم قبل النظر يذهبوا
ثم يحييهم إذا ابتسم يضحكـــوا ويفرحوا من بعد ما يندبوا
فميم كالخاتم وثغر نقـــــــــي خطيب الأمة للقبل يخطبو
جوهر ومرجان أي عقد يا فلان #وشارب أخضر يريد لاش يريد من شبهه بالمسك قد عيبو
يسبل دلال مثل جناح الغراب ليالي هجري منه يستغربوا
على بدن أبيض بلون الحليب ما قط راعي للغنم يحلبوا
وزوج هندات ما علمت قبلها ديك الصلا يا ربت ما أصلبو
تحت العكاكن منها خصر رقيق من رقتو يخفي إذا تطلبوا
أرق هو من ديني فيما تقول جديد عتبك حق ما أكذبو
أي دين بقا لي معاك وأي عقل من يتبعك من ذا وذا تسلبوا
تحمل أرداف ثقال كالرقيب حين ينظر العاشق وحين يرقبو

إن لم ينفس غدر أو ينقشـــــع في طرف ديسا والبشر تطلبو
يصير إليك المكان حين تجـــي وحين تغيب ترجع في عيني تبو
محاسنك مثل خصال الأميـــر أو الرمل من هو الذي يحسبو
عماد الأمصار وفصيح العرب من فصاحة لفظه يتقربو
بحمل العلم انفرد والعمـــــــل ومع بديع الشعر ما أكتبو
ففي الصدور بالرمح ما أطعنه وفي الرقاب بالسيف ما أضربو
من السماء يحسد في أربع صفات فمن يعد قلبي أو يحسبو
الشمس نورو والقمر همتـــــو الغيث جودو والنجوم منصبو
يركب جواد الجود ويطلق عنان الأغنيا والجند حين يركبوا
من خلعتو يلبس كل يوم بطيـــب منه بنات المعالي تطيبوا
نعمتو تظهر على كل من يجيـــه قاصد ووارد قط ما خيبوا
قد أظهر الحق وكان في حجاب لاش يقدر الباطل بعدما يحجبو

وقد بنى بالسر ركن التقـــــى من بعد ما كان الزمان خربو
تخاف حين تلقاه كما ترجيه فمع سماحة وجهو ما أسيبو
يلقى الحروب ضاحكاً وهي عابسة غلاب هولا شيء في الدنيا يغلبو
إذا حبد سيفه ما بين الـــــردود فليس شيء يغني من يضربو
وهو سمي المصطفى والإلـــه للسلطنة اختار واستنخبو
تراه خليفة أمير المؤمنيـــــــن يقود جيوشو ويزين موكبو
لذي الإمارة تخضع الـــرؤوس نعم وفي تقبيل يديه يرغبوا
بيته بقي بدور الزمـــــــــان يطلعوا في المجد ولا يغربوا

وفي المعالي والشرف يبعـــــــدوا وفي التواضع والحيا يقربوا
والله يبقيهم ما دار الفلـــــــــــك وأشرقت شمسه ولاح كوكبو
وما يغني ذا القصيد في عروض يا شمس خدر مالها مغربو

ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فناً آخر من الشعر، في أعاريض مزدوجة كالموشح، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً وسفوه عروض البلد وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب إلا قليلاً مطلعها:

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمـــــام على الغصن في البستان قريب الصباح
وكف السحر يمحو مداد الظـــــــلام وماء الندى يجري بثغر الأقاح
باكرت الرياض والطل فيها افتـــراق كثير الجواهر في نحور الجوار
ودمع النواعير ينهرق انهـــــــــراق يحاكي ثعابين حلقت بالثمار
لووا بالغصون خلخال على كل ساق ودار الجميع بالروض دور السوار
وأيدي الندى تخرق جيوب الكمـــام ويحمل نسيم المسك عنها رياح
وعاج الصبا يطلى بمسك الغمـــام وجر النسيم ذيلو عليها وفاح
رأيت الحمام بين الورق في القضيب قد ابتلت أرياشو بقطر الندى
تنوح مثل ذاك المستهام الغريـــــب قد التف من تربو الجديد في ردا
ولكن بما أحمر وساقو خضيـــــــب ينظم سلوك جوهر ويتقلدا
جلس بين الأغصان جلسة المستهام جناحا توسد والتوى في جناح
وصار يشتكي ما في الفؤاد من غرام منها ضم منقاره لصدره وصاح
قلت يا حمام أحرمت عيني الهجوع أراك ما تزال تبكي بدمع سفوح
قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع بلا دمع نبقى طول حياتي ننوح
على فرخ طار لي لم يكن لو رجوع ألفت البكا والحزن من عهد نوح
كذا الوفا وكذا هو الزمـــــــــــام انظر جفون صارت بحال الجراح

وأنتم من بكى منكم إذا تم عام يقـــــول عناني ذا البكا والنواح
قلت يا حمام لو خضت بحر الضنـــــى كنت تبكي وترثي لي بدمع هتون
ولو كان بقلبك ما بقلبي أنـــــــــــــا ما كان يصير تحتك فروع الغصون
اليوم نقاسي الهجر كم من سنـــــــــــاً حتى لا سبيل جملة تراني العيون
ومما كسا جسمي النحول والسقـــــــام أخفاني نحولي عن عيون اللواح
لو جتني المنايا كان يموت في المقـام ومن مات بعد يا قوم لقد استراح
قال لي لو رقدت لأوراق الريـــــاض من خوفي عليه وذا النفوس للفؤاد
وتخضبت من دمعي وذاك البيـــــاض طوق العهد في عنقي ليوم التناد
أما طرف منقاري حديثو استفـــــاض بأطراف البلد والجسم صار في الرماد

فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته، وتركوا الإعراب الذي ليس
من شانهم، وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه أصنافاً إلى المزدوج والكازي والملعبة والغزل. واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها. فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع من فصولهم وهو من أهل تازا:

المال زينة الدنيا وعز النفـــــــــوس يبهي وجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلـــــــــوس ولوه الكلام والرتبة العاليا
يكبر من كثر مالو ولو كان صغيـــر ويصغر عزيز القوم إذ يفتقر
من ذا ينطبق صدري ومن ذا تغيـــر وكان ينفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجي من هو في قومو كبيـــر لمن لا اصل عندو ولا لو خطر
لذا ينبغي يحزن على ذي العكـــوس ويصبغ عليه ثوب فراش صافيا
اللي صارت الأذناب أمام الـــرؤوس وصار يستفيد الواد من الساقيا
ضعف الناس على ذا وفسد ذا الزمان ما يدروا على من يكثروا ذا العتاب
#اللي صار فلان يصبح بو فـــــــلان ولو رأيت كيف يرد الجواب

عشنا والسلام حتى رأينا عيـــــــان أنفاس السلاطين في جلود الكلاب
كبحار النفوس جذا ضعاف الأسوس هم ناحيا والمجد في ناحيا
يرو أنهم والناس يروهم تيـــــــوس وجوه البلد والعمدة الراسيا

ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته:

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمـــان أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد إلا وخـــــــان قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعـــــــــوا ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وإن واصلوا من حينهم يقطعـــــوا وإن عاهدوا خانوا على كل حال
مليح كان هويتو وشت قلبي معـــو وصيرت من خدي لقد مونعال
ومهدت لو من وسط قلبي مكـــان وقلت لقلبي أكرم لمن حل فيك
وهون عليك ما يعتريك من هوان فلا بد من هول الهوى يعتريك
حكمتوا علي وارتضيت بو أميـــر فلو كان يرى حالي إذا يبصرو
يرجع مثل در حولي بوجه الغدير مرديه ويتعطس بحال انحرو
وتعلمت من ساعاً بسبق الضميـر ويفهم مرادو قبل أن يذكرو
ويحتل في مطلو لو أن كـــــان عصر في الربيع أو في الليالي يريك
ويمشي بسوق كان ولو بأصبهان وإيش ما يقل يحتاج لو يجيك

حتى أتى على آخرها.

وكان منهم علي بن المؤذن بتلمسان، وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف، أبدع في مذاهب هذا الفن. ومن أحسن ما علق له بمحفوظي قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى إفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان، ويعزيهم عنها ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد أن عيبهم على غزاتهم إلى إفريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة

يقول في مفتتحها، وهو من أبدع مذاهب البلاغة في الأشعار بالمقصد في مطلع الكلام وافتتاحه ويسمى براعة الاستهلال:

سبحان مالك خواطر الأمرا ونواصيها في كل حين وزمان
إن طعناه اعظم لنا نصـــرا وان عصيناه عاقب بكل هوان

إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص:

كن مرعى قل ولاتكن راعـــــي فالراعي عن رعيته مسؤول
واستفتح بالصلاة على الداعــي للإسلام والرضا السني المكمول
على الخلفاء الراشدين والأتبـاع واذكر بعدهم إذا تحب وقول
أحجاجا تخللوا الصحـــــــــــرا ودوا سرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المنيرة الغـــــــرا وين سارت بو عزايم السلطان
أحجاج بالنبي الذي زرتـــــــــم وقطعتم لو كلاكل البيدا
عن جيش الغرب حين يسألكم المتلوف في افريقيا السودا
#ومن كان بالعطايا يزودكم ويدع برية الحجاز رغدا
#قام قل للسد صادف الجزرا ويعجز شوط بعدما يخفان
#ويزف كر دوم تهب في الغبرا أى ما زاد غزالهم سبحان
#لو كان ما بين تونس الغربا وبلاد الغرب سدّ السكندر
#مبني من شرقها إلى غربا طبقا بحديد أو ثنايا بصفر
#لا بد للطير أن تجيب نبا أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر
#ما أعوصها من أمور وماشرا لو تقرا كل يوم علي الديوان
#لجرت الدم وانصدع الحجرا وهوت الخراب وخافت الغزلان
#أدرلي بعقلك الفحاص وتفكر لي بخاطرك جمعا
#ان كان تعلم حمام ولا رقاص عن السلطان شه وقبله سبعا
#تظهر عند المهيمن القصاص وعلامات تنشر علي الصمعا

ثم أخذ في ترحيل السلطان وجيوشه، إلى آخر رحلته ومنتهى أمره، مع أعراب إفريقية، وأتى فيها بكل غريبة من الإبداع. وأما أهل تونس فاستحدثوا فن الملعبة أيضاً على لغتهم الحضرية، إلا أن أكثره رديء ولم يعلق بمحفوظي منه شيء لرداءته.

الموشحان والأزجال في المشرق:

وكان لعامة بغداد أيضاً فن من الشعر يسمونه المواليا، وتحته فنون كثيرة يسمون منها القُوما، وكان وكان، ومنه مفرد ومنه في بيتين، ويسمون دوبيت على الاختلافات المعتبرة عندهم في كل واحدٍ منها، وغالبها مزدوجة من أربعة أغضانٍ. وتبعهم في ذلك أهل مصر القاهرة وأتوا فيها بالغرائب، وتبحروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية، فجاؤوا بالعجائب، ورأيت فم ديوان الصفي الحلي من كلامه (أن المواليا من بحر البسيط، وهو ذو أربعة أغصان وأربع قوافي، ويسمى صوتاً وبيتين. وأنه من مخترعات أهل واسط، وأن كان وكان فهو قافية واحدة وأوزان مختلفة في أشطاره: الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني ولا تكون قافيته إلا مردفة بحرف العلة وأنه من مخترعات البغداديين. وأنشد فيه لنا:

بغمز الحواجب حديث تفسير ومنو أوبو، وأم الأخرس تعرف بلغة الخرسان إنتهى كلام الصفي. ومن أعجب ما علق بحفظي منه قول شاعرهم:

هذي جراحي طريـــا   والدما تنضـــــــــــــح

وقاتلي يا أخيـــــــا   في الفلا يمـــــــــــرح

قالوا ونأخذ بثــــأرك   قلت ذا أقبـــــــــــح

إلى جرحتي يداوينـــي   يكون أصلـــــــــــح

ولغيره:

طرقت باب الخبا قالت من الطارق   فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق

تبسمت لاح لي من ثغرها بـــارق   رجعت حيران في بحر أدمعي غارق

ولغيره:

عهدي بها وهي لا تأمن علي البين وإن شكوت الهوى قالت فدتك العين
لمن يعاين لها غيري غلام الزيـــن ذكرتها العهد قالت لك علي دين

ولغيره في وصف الحشيش:

دي خمر صرف التي عهدي بها باقي تغني عن الخمر والخمار والساقي
قحبا ومن قحبها تعمل على إحراقـــي خبيتها في الحشى طلت من أحداقي

ولغيره:

يا من وصالو لأطفال المحبة بـح كم توجع القلب بالهجران أوه أح
أودعت قلبي حوحو والتصبر بـح كل الورى كخ في عيني وشخصك دح

ولغيره:

ناديتها ومشيبي قد طواني طـــي جودي علي بقبلة في الهوى يا مي
قالت وقد كوت داخل فؤادي كـي ما ظن ذا القطن يغشى فم من هو حي

ولغيره:

راني ابتسم سبقت سحب أدمعي برقه ماط اللثام تبدي بدر في شرف
أسبل دجى الشعرتاه القلب في طرقه رجع هدانا بخيط الصبح من فرقه

ولغيره:

يا حادي العيش ازجر بالمطايا زجـــــر وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر
زجر وصي في حيهم يا من يريد الأجر ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر

ولغيره:

عيني التي كنت أرعاكم بها باتت ترعى النجوم وبالتسهيد اقتاتت
وأسهم البين صابتني ولا فاتـــت وسلوتي عظم الله أجركم ماتت

ولغيره:

هويت في قنطرتكم يا ملاح الحكـــر غزال يبلى الأسود الضاريا بالفكر

غصن إذا ما انثنى يسبي البنات البكر وإن تهلل فما للبدر عندو ذكر

ومن الذي يسفونه دوبيت:

قد أقسم من أحبه بالباري أن يبعث طيفه مع الأسحار

يا نار أشواقي به فاقتدي ليلاً فعساه يهتدي بالنار

واعلم أن الأذواق كفها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها، حتى يحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية. فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب؛ ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمشرق؛ ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس والمغرب. لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم، وكل واحدٍ منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشجر من أهل جلدته. {وفي خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات للعالمين} .

خاتمة

وقد كدنا أن نخرج عن الغرض، ولذلك عزمنا ان نقبض العنان عن القول في

هذا الكتاب الأول، الذي هو طبيعة العمران، وما يعرض فيه، وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاء له. ولعل من يأتي بعدنا، ممن يؤيده الله بفكر صحيحٍ وعلمٍ مبينٍ، يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا؛ فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله، وما يتكلم فيه، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه: أتممت هذا الجزء الأول، المشتمل على المقدمة بالوضع والتأليف، قبل التنقيح والتهذيب، في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة. ثم نقحته بعد ذلك وهذبته، وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله وشرطته. وما العلم إلا من عند الله العزيز الحكيم.

تم طبع المجلد الأول المعروف بمقدمة ابن خلدون،
ويليه المجلد الثاني. أوله الكتاب الثاني في أخبار العرب وأجيالهم
ودولهم،منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد.

فهرس لمجلد الأول

من تاريخ ابن خلدون

الموضوع الصفحة

مقدمة الناشر

3

مقدمة المؤلف

5

في فضل علم التاريخ

13

الكتاب الأول : في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونموها وما لذلك من العلل والأسباب

46

الباب الأول : المقدمة الأولى : في العمران البشري على الجملة

54

المقدمة الثانية : في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم

57

تكملة لهذه المقدمة الثانية

63

تفصيل الكلام على بدء الجغرافيا: أقاليم الأرض السبعة

67

الاقليم الأول

68

الاقليم الثاني

73

الاقليم الثالث

75

الاقليم الرابع

82

الاقليم الخامس
90
الاقليم السادس
97
الاقليم السابع
100
المقدمة الثالثة : في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهراء
103
المقدمة الرابعة: في أثر الهواء في أخلاق البشر
108
المقدمة الخامسة : في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع
109
المقدمة السادسة : في أصناف المدركين للغيب من البشر
115
تفسير حقيقة النبوة
120
الوحي
123
الكهانة
125

الرؤيا
149
الباب الثاني : في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل
149
الفصل الأول : في أن أجيال البدو والحضر طبيعية
149
الفصل الثاني : في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي
151
الفصل الثالث : قدم البادية والبدو
152
الفصل الرابع : في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر
153
الفصل الخامس : شجاعة أهل البدو
155
الفصل السادس : معاناة أهل الحضر للأحكام
157
الفصل السابع : القبائل التي تسكن البدو
159
الفصل الثامن : في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب
160
الفصل التاسع : في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر
161
الفصل العاشر: في اختلاط الأنساب
163
الفصل الحادي عشر: في أن الرئاسة لأهل العصبية
164
الفصل الثاني عشر: في أن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم
165
الفصل الثالث عشر: في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية
167

الفصل الرابع عشر: في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم
169
الفصل الخامس عشر: في أن نهاية النسب في العقب الواحد أربعة آباء
170
الفصل السادس عشر: في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب من سواها
172
الفصل السابع عشر: في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك
174
الفصل الثامن عشر: من عوائق الملك حصول الترف
175
الفصل التاسع عشر: من عوائق الملك حصول المذلة
176
الفصل العشرون : الخلال الحميدة من علامات الملك
178
الفصل الحادي والعشرون : في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع
181
الفصل الثاني والعشرون : انتقال الملك بين الشعوب
182
الفصل الثالث والعشرون : ولع المغلوب بالاقتداء بالغالب
184
الفصل الرابع والعشرون : الأمة إذا غلبت أسرع إليها الفناء
185
الفصل الخامس والعشرون : في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط
186
الفصل السادس والعشرون : في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب
187
الفصل السابع والعشرون : في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم

الفصل الثامن والعشرون :.في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك
189
الفصل التاسع والعشرون : في أن البوادي من القبائل مغلوبون لأبل الأمصار
191
الباب الثالث : في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية
193
الفصل الأول : في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية
193
الفصل الثاني : في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية
194
الفصل الثالث : في أنه قد يحدث .لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية
196
الفصل الرابع : الدين أصل الاستيلاء على الملك
197
الفصل الخامس : في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة قوة على قوة العصبية
198
الفصل السادس : في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم
199
الفصل السابع : ني آن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها
202
الفصل الثامن : اتساع نطاق الدولة ونسبة القائمين بها
204
الفصل التاسع : في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة
206
الفصل العاشر: في أن طبيعة الملك الانفراد بالمجد
208
الفصل الحادي عشر: في أن طبيعة الملك الترف
209

الفصل الثاني عثر: في أن طبيعة الملك الدعة والسكون
210
الفصل الثالث عثر: في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم
210
الفصل الرابع عشر: في أن الدولة لها أعمار طبيعية كم للأشخاص
213
الفصل الخامس عشر: في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة
215
الفصل السادس عشر: في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوة
218
الفصل السابع عشر : في أطوار الدولة واختلاف أحوالها
219
الفصل الثامن عشر: في أن آثار الدولة كلها على نسبة قرتها
221
الفصل التاسع عشر: في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين
229
الفصل العشرون : في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول
230
الفصل الحادي والعشرون : فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه
232
الفصل الثاني والعشرون : في أن المتغلبين على السلطان لا يثار كونه في اللقب
233
الفصل الثالث والعشرون : في حقيقة الملك وأصنافه
234
الفصل الرابع والعشرون : في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر
236
الفصل الخامس والعشرون : في معنى الخلافة والإمامة

237
الفصل السادس والعشرون : في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه
239

الفصل السابع والعشرون : في مذاهب الشيعة في حكم الإمامة
246
الفصل الثامن والعشرون : في انقلاب الخلافة إلى الملك
253
الفصل التاسع والعشرون : في معنى البيعة
261
الفصل الثلاثون : في ولاية العهد–مقتل الحسين بن علي
262
الفصل الحادي والثلاثون : في الخطط الدينية الخلافية :
272
العدالة، الحسبة، والسكة
280
الفصل الثاني والثلاثون : في اللقب بأمير المؤمنين وأنه من سمات الخلافة
282
الفصل الثالث والثلاثون : في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود
287
الفصل الرابع والثلاثون : في مراتب الملك والسلطان وألقابها :
292
الوزارة
294
الحجابة
299
ديوان الأعمال والجباية
302
ديوان الرسائل والكتابة
305
الشرطة
311
قيادة الأساطيل

312
الفصل الخامس والثلاثون : في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول
318
الفصل السادس والثلاثون : في شارات الملك والسلطان الخاصة به
319
السرير والمنبر والتخت والكرسي
322
السكة
322
مقدار الدرهم والدينار
324
الخاتم
326
الطراز
329
الفساطيط والسياج
330
المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة
332
الفصل السابع والثلاثون : في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها
334
الفصل الثامن والثلاثون : في الجباية وسبب قلتها وكثرتها
344
الفصل التاسع والثلاثون : في ضرب المكوس أواخر الدولة
345
الفصل الأربعون : ضرر وفساد تجارة السلطان
346
الفصل الحادي والأربعون : في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة
349

الفصل الثاني والأربعون : في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية
353
الفصل الثالث والأربعون : في ان الظلم مؤذن بخراب العمران
353
الاحتكار
357
الفصل الرابع والأربعون : في الحجاب كيف يقع في الدول وانه يعظم عند الهرم
358
الفصل الخامس والأربعون : في انقسام الدولة الواحدة بدولتين
360
الفصل السادس والأربعون : في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع
362
الفصل السابع والأربعون : في كيفية طروق الخلل للدولة
363
الفصل الثامن والأربعون : في حدوث الدولة وتجددها كيف يقع
الفصل التاسع والأربعون : في كيفية استيلاء الدولة المستجدة على الدولة المستقرة
الفصل الخمسون : وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من الموتان والمجاعات 320
الفصل الحادي والخمسون : في أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره – نص كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله
321

الفصل الثاني والخمسون : في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شانه
330
الفصل الثالث والخمسون : في حدثان الدول والأمم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر–التنجيم –الملاحم
350
الباب الرابع : في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال 365
الفصل الأول : في أن الدول اقدم من المدن والأمصار
365
الفصل الثاني : في أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار
366
الفصل الثالث : في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير 367
الفصل الرابع : في ان الهياكل العظيمة لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة
368
الفصل الخامس : فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن
370
الفصل السادس : في المساجد والبيوت العظيمة في العالم
372
الفصل السابع : في أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة
381
الفصل الثامن : في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها 382
الفصل التاسع : في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل 382
الفصل العاشر: في مبادئ الخراب في الأمصار
383
الفصل الحادي عشر: في أن تفاضل الأمصار والمدن في كرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة
384

الفصل الثاني عشر: في أسعار المدن
386
الفصل الثالث عشر: في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران
389
الفصل الرابع عشر: في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرفه والفقر مثل الأمصار 389
الفصل الخامس عشر: في تأثل العقار والضياع في الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها 391
الفصل السادس عشر: في حاجات المتسولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة 392
الفصل السابع عشر: في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول
وإنما ترسخ باتصال الدولة أو رسوخها
393
الفصل الثامن عشر: في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساد 396
الفصل التاسع عشر: في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها 399 الفصل العشرون : في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض 401
الفصل الحادي والعشرون : في وجود العصبية في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض 402
الفصل الثاني والعشرون : في لغات أهل الأمصار
403
الباب الخامس : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض
في ذلك كله من الأحوال
406

الفصل الأول : في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية 406 الفصل الثاني : في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه 408
الفصل الثالث : في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي 409
الفصل الرابع : في أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي 410
الفصل الخامس : في أن الجاه مفيد للمال 415
الفصل السادس : في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع والتملق 415
الفصل السابع : في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة
والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الألب 419
الفصل الثامن : في أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو 420
الفصل التاسع : في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها 420
الفصل العاشر: في أي أصناف الناس ينتفع بالتجارة وأيهم ينبني له اجتناب حرفها 421
الفصل الحادي عشر: في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك 421
الفصل الثاني عشر: في نقل التاجر للسلع 422
الفصل الثالث عشر: في الاحتكار 423
الفصل الرابع عشر: في أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخيص 424
الفصل الخامس عشر: في أن خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة 425

الفصل السادس عشر: في أن الصنائع لا بد لها من العلم
426
الفصل السابع عشر: في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته
427
الفصل الثامن عشر: في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها
428
الفصل التاسع عشر: في أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها
429
الفصل العشرون : في أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع
430
الفصل الحادي والعشرون : في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع
430
الفصل الثاني والعشرون : في أن من حصلت له ملكة في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة في أخرى
431
الفصل الثالث والعشرون : في الإشارة إلى أمهات الصنائع
432
الفصل الرابع والعشرون : في صناعة الفلاحة
432
الفصل الخامس والعشرون : في صناعة البناء
433
الفصل السادس والعشرون : في صناعة النجارة
436
الفصل السابع والعشرون : في صناعة الحياكة والخياطة
438
الفصل الثامن والعشرون : في صناعة التوليد
439
الفصل التاسع والعشرون : في صناعة الطب
441

الفصل الثلاثون : في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية
444
الفصل الحادي والثلاثون : في صناعة الوراقة
451
الفصل الثاني والثلاثون : في صناعة البناء
453
الفصل الثالث والثلاثون : في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب 458
الباب السادس : في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه
460
الفصل الأول : في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري
460
الفصل الثاني : في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع
461
الفصل الثالث : في أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة
465
الفصل الرابع : في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد
466
الفصل الخامس : علوم القرآن من التفسير والقراءات
468
الفصل السادس : علوم الحديث
471
الفصل السابع : علم الفقه وما يتبعه من الفرائض
476
الفصل الثامن :علم الفرائض
483
الفصل التاسع : أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات
484
الفصل العاشر: علم الكلام 490

الفصل الحادي عشر: في أن عالم الحوادث إنما يتم بالفكر
499
الفصل الثاني عشر: العقل التجربي وكيفية حدوثه
501
الفصل الثالث عشر: علوم البشر وعلوم الملائكة
502
الفصل الرابع عشر: علوم الأنبياء 503
الفصل الخامس عشر: الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب
504
الفصل السادس عشر: كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة
505
الفصل السابع عشر: علم التصوف
514
الفصل الثامن عشر: علم تعبير الرؤيا
526
الفصل التاسع عشر: العلوم العقلية وأصنافها
535
الفصل العشرون : العلوم العددية : الحساب ، الجبر، المعاملات والفرائض
534
الفصل الحادي والعشرون : العلوم العددية–المساحة
538
الفصل الثاني والعشرون : علم الهيئة–علم الأزياج
540
الفصل الثالث والعشرون : علم المنطق
542
الفصل الرابع والعشرون : الطبيعيات
546
الفصل الخامس والعشرون : علم الطب
547

الفصل السادس والعشرون : الفلاحة

548

الفصل السابع والعشرون : علم الإلهيات
549
الفصل الثامن والعشرون : علوم السحر والطلسمات
551
الفصل التاسع والعشرون : علم أسرار الحروف
558
الفصل الثلاثون : علم الكيمياء
585
الفصل الحادي والثلاثون : في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها
595
الفصل الثاني والثلاثون : في إبطال صناعة النجوم
601
الفصل الثالث والثلاثون : إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشا من المفاسد عن انتحالها
606
الفصل الرابع والثلاثون : كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل
613
الفصل الخامس والثلاثون : المقاصد التي ينبني اعتمادها في التأليف
614
الفصل السادس والثلاثون : كثرة الاختصارات المؤلفةّ في العلوم مخلة بالتعليم
617
الفصل السابع والثلاثون : في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته –الفكر الإنساني
618
الفصل الثامن والثلاثون : في أن العلوم الإلهية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل
622
الفصل التاسع والثلاثون : في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار
623

الفصل الأربعون : في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم
625
الفصل الحادي والأربعون : الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم
626
الفصل الثاني والأربعون : بعد العلماء عن السياسة ومذاهبها
627
الفصل الثالث والأربعون : حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم
628
الفصل الرابع والأربعون : في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي
631
الفصل الخاسر والأربعون : في علوم اللسان العربي : علم النحو –علم اللغة–علم البيان –علم الأدب
633
الفصل السادس والأربعون : في ان اللغة ملكة صناعية
643
الفصل السابع والأربعون : مغايرة لغة العرب لهذا العهد للغة مضر وحمير
644
الفصل الثامن والأربعون : لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر 647
الفصل التاسع والأربعون : في تعليم اللسان المضري
648
الفصل الخمسون : ملكة صناعة اللسان غير صناعة العربية
649
الفصل الحادي والخمسون : تفسير الذوق البياني وتحقيق معناه
651

الفصل الثاني والخمسون : قصور أهل الأمصار في تحصيل الملكة اللسانية
654
الفصل الثالث والخمسون : انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر
656
الفصل الرابع والخمسون : في انه لا تتفق الإجادة في فتي المنظوم والمنثور معا إلا للأقل
658
الفصل الخامس والخمسون : في صناعة الشعر ووجه تعلمه
659
الفصل السادس والخمسون : في أن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني 667
الفصل السابع والخمسون : في أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ
668
الفصل الثامن والخمسون : في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع
671
الفصل التاسع والخمسون : في ترفع أهل المراتب عن انتحال الشعر
674
الفصل الستون : في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد
675
خاتمة
709